المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السابع عشر بعد المئة

١ اغسطس سنة ١٩٥٠ ١٧ شوال سنة ١٣٦٩

بين الغريزة والعقل

يتعذر على النشوئي Evolutionist أن يضع أصبعه على حلقة معينة في سلسلة النشوء والارتقاء ويقول : « هنا الحد الفاصل بين الحيوان والانسان » .

الانسان كما صار الآن لم يبقَ ملتبساً بالاحياء العليا أشباه الانسان وأنسابها . لأن فرعه بسق وشمخ عالياً جدًّا عن فروع الأحياء الأخرى، وامتاز برقيّ لا مضارع لهُ في عالم الحياة . ولكن الانسان كما كان حين انفصل عن سائر الأحياء واتجه في خط الانسانية لا يمتاز عن الفروع التي بسق من بينها بمزايا واضحة تفصله عنها . ولذلك يتعذر على أي عالم من علماء الحياة والعقل والاجتماع أن يُعرّف الانسان الأول

قد تقول : انه يُعَدُّ « انساناً » منذ صار منتصب القامة يمشي على قدميهِ . ولكن الجوبون وبعض الأحياء العليا تمشي منتصبة على القدمين . ناهيك عن الطيور التي تمشي على أقدامها . أو لعلك تقول : يعد « انساناً » لما صار يتفاهم بالنطق . ولكن لكثير من الأحياء ولا سيما اشباه الانسان اصواتاً قليلة للتفاهم فيما تقتضيه أحوالها الاجتماعية البسيطة . مع ذلك لم يصر الانسان الأول ناطقاً بالمعنى الذي نفهمه الآن . أي أنه يركّب جُملاً من

ألفاظ الآ بعد أن شرع يتحضر بزمن طويل . فقد حصل على كثير من مزايا اجتماعية قبل أن حصل على مزايا النطق . حتى التحضر نفسه لم يكن المزيَّة (لا الميزة) الخاصة به بل سبقه اليه النمل والنحل وكلب البحر Beaver وكثير من الحيوانات الاجتماعية كما سنلمع اليه فيما بعد

أو لعلك تقول انه يُعَدّ « انساناً » منذ صار عاقلاً، أي صاحب القوى العقلية الأولية – الذاكرة والاستدلال والاستنتاج – . ولكنك لا تستطيع أن تجرد الأحياء العليا من بسائط هذه القوى بتاتاً . فهي تحرزها كما يحرزها الانسان، وانما بقدر أقل جداً، حتى بعض الحيوانات الأخرى كالفيلة والكلاب تحرز جراثيم منها

لا نستطيع أن نعين الحد الفاصل بين العاقل والبهيم . فلا انتصاب القامة ولا النطق ولا التعقل ولا الاجتماعية حتى ولا التحضر تعتبر خواص للانسان دون الحيوان . وانما ربما نشأ الحد الفاصل بينهما منذ شرع العقل ينفصل عن الغريزة ويستقل عنها في الجهاد ولأجل البقاء . ومع ذلك لم يحدث هذا الانفصال فجاءة لكي يعد حداً بين الانسانية والحيوانية . وانما استغرق عهداً طويلاً كغيره من سائر عمليات التطور

* * *

وهنا قد يلوح لك أن تسأل : كيف يتميز العقل في أول نشوئه عن الغريزة ؟ فأظن أن التمايز الوحيد بينهما هو في كيفية ملاءمة البيئة . أو بعبارة أصح هو في كيفية التفاعل مع عوامل البيئة الطبيعية . فالغريزة (التي هي نتيجة سنن التطور الرئيسية : الانتخاب الطبيعي، والانتخاب الجنسي، والوراثة، وملاءمة البيئة) تجعل الحي مرناً ينصاع لمقتضيات عوامل البيئة العتيدة . وبفعل هذه السنن تتكيف اعضاء الحي بمقتضى هذه العوامل لكي يتسنى للغريزة أن تحتال على الطبيعة وتبتز منها خيرها في كنف ذلك الانصياع

وأما العقل فيحاول أن ينتزع من البيئة حقه في الحياة باخضاعها له ، لا بخضوعه لها كما تفعل الغريزة . فهو لا يصطبر على عوامل البيئة الطبيعية الى أن تكيف أعضاء جسمه لكي تصاقب البيئة بل يختلق الحيلة لمقاومة عوامل الطبيعة أو لتطويعها . فاذا لم يكن لجسمه

خياشيم وزعانف تُقدِره على خوض المياه اصطنع الارماث ثم الزوارق للخوض . وان لم تكن له قواضم ومخالب للحفر استخدم النبوت فالمعول الخ

الغريزة تحتال من داخل الجسم لمصاقبة البيئة . والعقل يحتال خارج الجسم على جعل الطبيعة مصاقبة له . والغريزة تعمل ببطء . والعقل يعمل بسرعة . لهذا سبق الفرع الإنساني وشمخ في سلسلة التطوّر بسرعة هائلة . اذن يمكنك أن تقول أن الانسان شرع ينفصل عن الحيوانية منذ شرع يخترع . لأنه منذ ذاك الحين أخذ يحتال والحيلة أم الاختراع كما يقال . والحاجة تفتق الحيلة . والحيلة كما تفهمها بنت العقل لا بنت الغريزة .

اشتقاق العقل من الغريزة

اذا تعمقنا في استكناه سر الحيلة فربما أدركنا أن المكر هو نواتها . ولا ريب ان الانسان الأول كان يتخذ ضروباً عديدة من المكر في صيد الحيوانات والطيور والاسماك كالكمون لها والإغراء بالطعم ونحو ذلك . ولكنه لم ينفرد وحده بالمكر . فقد سبقه اليه بعض الأحياء الدنيا بواسطة الغريزة لا بواسطة العقل . والشواهد على مكرها عديدة لا تحصى كنسيج الرتيلاء لاصطياد الذباب . ولبعض أنواع النباتات ضروب من الغريزة كالنبات القانص من نوع دروزاريا Droseria فان لهذا النبات زهراً ذا فلقتين كأنهما شفتان وبينهما رحيق يستطيبه الذباب . فاذا جعل الذباب يمتصه أطبقت الزهرة جفنيها عليه وخنقته واهتضمته .

ومن أغرب أنواع المكر الغريزي مكر حيوان بحري له خرطوم طويل ممتد من فوق فكه الأعلى وفي طرفه هنة تضيء كأن فيه جهازاً كهربائياً لهذا الغرض . فمتى كان ذلك الحيوان مصطاداً يفتح شدقيه ثم يقنطر خرطومه من فوق فكه الى أن يصبح مصباحه المضيء بين شدقيه المنفرجين . فتتجمع أسماك صغيرة حول ذلك المصباح منجذبة إليه بضيائه حتى متى وثق ذلك الماكر من حومها حول مصباحه أطبق فكيه بسرعة عليها وازدردها وسلّ مصباحه لتكرار الحيلة مرة أخرى .

فهذه حيلة غريزية لا يقل مكرها قيمة عن دهاء حيلة عقلية . لذلك نضرب صفحاً

عن المكر ولا نحسبه مزية خاصة للانسانية. ونتخطاه الى سلاح الدفاع. فالانسان الأول شرع يستعين في القتال بسلاح يبلغ الى عدوه قبل أن تبلغ أنياب عدوه وبراثنه ومخالبه إليه. يقاتله من بعيد بالمراوات والنبابيت والقذايف من عصي وحجارة. ولا يخفى أن هذه الأسلحة أجنبية عن الجسم اخترعها العقل، خلافاً للأنياب والبراثن والمخالب والأنياب السامة والحمات القارصة والأشواك الواخزة الى غير ذلك مما تستعملها الضواري والكواسر واللواذع واللواسع بحكم الغريزة

* * *

نجنح الآن الى المأوى. فلا ريب أن الانسان الأول كان يصنع من الأغصان مأوى يأوي إليه تارةً بين فروع الشجر المتشابكة وطوراً على الأرض بين جذوع الشجر كما تفعل الغورلاّ والشمبانزي والأوران أوتان. ولا بد انه تفنَّن أكثر من هذه في بناء مآويه الشجرية. وما لبث أن زاد مبانيه إحكاماً واتقاناً بما أضافه إليها من طين وحجارة تمكيناً لها، وزيادة امتناع بها من زعازع الرياح واقلاقها له، واتقاءً بها من الحر حيناً والقر حيناً آخر وماصار يحتمي بها من هجمات الضواري إلاّ لما صار يبتنيها من ضخام الحجارة. ولذلك كانت تلك المآوي على الغالب في أول أمرها تصنع بين فروع الشجر حيث لا تصل إليها الضواري

على أن ابتناء المآوي الأولية لم يختص به الانسان الأول، بل سبقته إليه بعض أنواع الحيوانات. فأوكار المناجذ (جمع خلد) والفئران وخلايا النحل وأوكار النمل وعشوش الطيور وأوجارها هي ضروب من المآوي. وأعجب منها المنازل التي تبتنيها كلاب الماء Beaver في مجاري المياه وشواطىء الأنهر وفي قعورها. فمنها ما يمنع تجلد المياه في صقيع الشتاء. ومنها ما يقي ذلك الحيوان من عدوان الأعداء. تندهش لرؤية تلك المنازل العجيبة كأنها مدينة متعدّدة الأبنية. فهي مبنية من الطين الدلغاني ولها أبواب ومنافذ وأروقة تصل بعضها ببعض كأن هناك عقلاً هندسها على قواعد فنية. ولكن ليس مهندسها إلاّ الغريزة التي تمهد السبيل للعقل. ولعلَّ الإنسان الأول اقتبس صناعة البناء من أبنية كلاب الماء هذه. فانتحل العقل ما اخترعته الغريزة. فما هو سارق حق غيره، بل هو وارث ملك أمه الغريزة.

تتقدم الآن الى وسائل الاسترزاق لعلنا نجد هناك ما ينفرد به الانسان ويمتاز به على الحيوان . أما الصيد والقنص وما اليهما فهي خلال شائعة في جميع الأحياء بلا استثناء . والانسان قد ورث الضراوة من جدّه الحيوان . وانما متى رأيناه لا يتكل على وجود الطبيعة له بالرزق متى شاءت وتفضلت ، بل هو يعده لنفسه متى شاء ، علمنا أن العقل قد طلق الغريزة وجعل يعمل عمله مستقلاً . ولكن الغريزة لم تطلقه بقي لها عمل معه .

رأى الانسان الأول أن الطبيعة تنبت الحب كالحنطة والقطاني في فصل الربيع وتجود به في آخر الصيف . وبعد ذلك لا حب فريكاً ولا جافاً فيقضي فصلين يجاهد في تحصيل الغذاء من بين أعطاف البخت والحظ في الصيد والقنص ، فيجوع أحياناً ويتخم أحياناً . فأرشدته حكمة العقل الى فضيلة الادخار . فاصطنع الأهراء لخزن الغلال . وفي هذا الاختراع أيضاً لم يكن منفرداً فقد سبقته اليه طوائف النمل والنحل ، ولعله تعلمه منها وأخذه عنها ، ولكنه ما اكتفى أن اقتبس منها اختراع الاختزان ، بل جعل ينتهب من خلايا النحل ما اختزنه النحل .

* * *

ولما اهتدى الى فائدة الادخار توسع بها ، وجعل يدخر الحيوانات التي يصطادها أو يقتنصها ويتغذى بلحومها كالايل والأبقار والأغنام وما اليها ، مما كان يستطيع التغلب عليه من الحيوانات . فكان يحصرها في حظيرة مسورة لكيلا تشرد منه ، وكان مضطراً أن يغذيها بالنبات والقش والتبن مما اعتادت أن ترعاه . وعلى التمادي أصبح يختزن العديد منها على مدى السنة . فكانت تتوالد وهي تحت رعايته . وعلى مرور الزمان ألفت تلك الحيوانات سيدها الانسان ولم تعد تنفر منه فصار يصون لها المراعي ويخصها بها . وصار إذا انتقل من اقليم الى اقليم يسوقها معه من مرعى الى مرعى . وهكذا اخترع الانسان دواجن الحيوان

ومما يحسن ذكره وقد ساق الحديث اليه أن أحد أدوار الانسان الأول يسمى « دور الأيائل » لأن الانسان كان في ذلك الدور يربي الأيائل كما يربي انسان اليوم الأنعام وسائر الماشية .

بالله ! حتى في هذا الاختراع لم يكن الانسان مبتكراً فقد سبقته اليه طائفة من النمل

تدعى علميًّا «فورميكا سنجوينا» . فهذه الطائفة دجنت طائفة من البعوض تدعى Aphides والعلماء يسمونها « بقر النمل » لأن هذا النوع من البعوض يفرز رحيقاً يستلذه النمل . لذلك جعل النمل المذكور يعنى بتربيته لأجل رضاعة رحيقه ، كما يربي الانسان الأنعام لاحتلاب لبنها . وقد ألف ذلك البعوض سيده حتى انه لم يعد يستطيع أن يفرز رحيقه إلاّ اذا دغدغه النمل بخرطومه . ومن العجيب أن النمل متى شاء الرحيل الى بيئة أخرى نقل بقراته هذه معه . فكأن اختراع الانسان في تربية الماشية ليس من مبتكراته . فقد سبقه النمل إليه .

ومن غرائب الطباق بين اختراعات العقل واختراعات الغريزة أيضاً أن الإنسان روَّض بعض الحيوانات كمطايا له كالخيل والجمال والفيلة . وهناك حيوان بحري لا يعيش إلاّ على ظهر حيوان آخر من غير نوعه ، بحيث يجول حامله انتجاعاً لرزقه يكون هو صائباً رزقه . والرزقان مختلفان فلا محل لتنازع الحيوانين (ومن سوء الحظ أني نسيت اسمي هذين الحيوانين) .

عجباً إذاً . الى متى نبحث عن اختراع للإنسان لم يسبقه إليه حيوان فلا نجد ؟

قلنا آنفاً إن حكمة العقل أرشدت الإنسان الى فكرة اختزان الغلال . على ان الاختزان هذا صار يحرم الأرض من البذار الذي كان في الحالة الطبيعية الأولى يتساقط بعد النضوج على الأرض ، ويبقى مخزوناً فيها الى الربيع التالي حيث ينبت ويفرخ من تلقاء نفسه . فلما رأى الإنسان أن النبت قلَّ بعد الحصد والخزن فطن الى أن النبت الربيعي هو في ذلك الحب الذي استغلَّهُ واختزنه . فعاد يبذر قسماً منه لكي يستنبته ويستغله . وهكذا كان الزرع والبذر من جملة اختراعات الانسان الأولى . وكان ذلك الانسان القديم يتعهد الزرع كما كان يتعهد الماشية ويعنى بهما جميعاً . فهل كان مختصًّا بهذا الاختراع أو سبقه إليه غيره من الأحياء كما سبقته بعضها الى اختراعاته الأخرى التي أشرنا إليها آنفاً ؟

أجل لطائفة من النمل هذه الغريزة أيضاً — غريزة الزرع . فهي تزرع نوعاً من النباتات الفطرية Fungus وتعني بها لكي تتغذى بها . ان الزرع ليس من مبتكرات الانسان الأول ولا هو من مختصاته . [في العدد القادم أعظم اختراعات الانسان الأول]

هلم نقتل الذئب
الذي في الانسان

يرينا رجال الدين في مواعظهم باب الجحيم مفتوحاً على مصراعيه. وقلما يرونا الفردوس تجري من تحتهِ الأنهار ومن كل فاكهة فيهِ زوجان. بعد أن طرد آدم وحواء من الجنة صارت هذه الجنة عند الأنام نسياً منسيًّا. ولم يعد الأب والمعلم والمؤدب يذكرون للطفل الاَّ نار جهنم لكي يرهبوه من عاقبة الخطيئة. وعلى الرغم من هذا النذير نرى الناس لا يرتدعون عن الأثم، بل لا يزالون يتمادون في الشر حتى أنهم صاروا يستنبطون مبررات لمعاصيهم وشرورهم. وفي زمن الحرب يستعين رجال الحكم بالدين في الدعوة الى التجنيد للقتال.

من ذلك أن ملك اليونان كان في حرب البلقان يضع أمامه في المركبة صورة المصلوب ويطوف في الشوارع يحرض الناس على التقدم للجندية. وفي زمن الحرب يصلي رجال الدين الى الٓهِ السلام أن ينصر دولتهم ويهلك أعداءهم حتى ان الله تعالى لم يعد يعلم من هم الجديرون بنصره ومن هم الخليقون بالهزيمة

الناس يذكرون جهنم للارهاب والتخويف من الخطيئة والشر. ولكن لم يكن هذا التخويف يردع الناس عن شرورهم، لا تجد واحداً بالألف منهم يتجنب المعصية خوفاً من جهنم حتى ولا خوفاً من الله، وأصبحت العبادة عندهم حصانة من عذاب الجحيم ومناعة من الدينونة. لا أكثر من واحد في الألف من الذين يصلون ويسجدون ويصومون يحسبون السجود والصلاة والصوم كافية لمغفرة خطاياهم. فيكثرون منها لكي يتاح لهم أن يرتكبوا غيرها. يصلي الواحد منهم في الصباح ويرتكب موبقة في الظهر، ثم يصلي العصر لكي تُغفر له خطيئة الظهر. وهكذا يظل يأثم ويستغفر الى يوم الدين واذا هو لا له ولا عليه (كيت). وفيما هو يصلي يفكر بمكيدة ينصبها لجارهِ أو لصديقه أو لعدوه، حتى اذا نجحت المكيدة حمد الله واستغفره عنها. ثم شرع ينسج غيرها ويستغفر، وهكذا دواليك

إذن فنار جهنم لم تكن لتردع الانسان عن شروره . فهو يجرم ويرتكب والرحمان واسع الرحمة يغفر: « اذا كانت خطايا كم كالقرمز أبيضها كالثلج ». هكذا قال الرحمان الرحيم بلسان أحد الانبياء . أعني أن التخويف بعذاب الجحيم لا يردع الطبع البشري عن الشر ما دامت المغفرة ميسورة والجحيم غير منظور ، وعذابه بعيد الزمن ، فلا يخوّف . وبين ذلك العذاب والأجل رحمة الله الواسعة . فقد ينجو من الجحيم أشر الأشرار اذا أتيح له أن يستغفر الله قبل انتهاء الأجل . وربما كان المحكوم عليه بالشنق أضمن لرحمة الله من غيره لأنه يعرف قرب أجله فيتوب الى الله وتذهب روحه الى بارئها مغفورة لها خطاياها

يقولون انه لابد من التهديد بعذاب النار لكي يرتدع الأشرار عن الشر ، والا أكل الناس بعضهم بعضاً . وأي فناء أفنى لهم من هذا الفناء بكوارث القنابل الذرية والسهام الصاروخية والطائرات المدمرة .

أما بلغ اليهم نذير النار في سقر ؟ فلماذا لم يرتدعوا ؟ ام انهم يعتصمون بحبل رحمة الرحمان الرحيم ! ام انهم يشركون الله بشرهم (اللهمّ غفرانك) حين يصلون اليه أن ينصرهم على اعدائهم . وبهذا الأشراك يحصلون على غفرانه

وكأني بكم تقولون: ماذا تريد؟ أتريد أن نضرب بانذار الكتب المقدسة عرض الحائط؟ اذا لم نقل للناس خافوا نار جهنم التي هي عقاب للخطيئة ، وابتعدوا عن المعصية والا فعذاب الجحيم لكم في المرصاد — اذا لم ننذرهم بهذا النذير أفلا يتمادون في غيهم ؟

وأنا أقول لكم اذا كانوا لا يخافون الله فهل يخافون النار ؟

لعمري أن تمنيهم بسعادة الجنة خير لهم من أن تهددهم بعذاب النار وسوء المصير . على أنهم يقولون أننا نشعر بمسرات هذه الدنيا ولكننا نشك بسعادة الآخرة . فلنتمتع بما هو حاصل من السعادة ونضرب صفحاً عما لم يحصل بعد

وحاصل القول انه لا التهديد بالنار ، ولا الاغراء بجنات تجري من تحتها الأنهار تكفي لأن تقتل في الأنسان ذئب طبعه الشرير الحيواني

ما حدث في دير يسين وطبريا في فلسطين من التفظيع كشف عما في قلب الانسان الحيوان من الشر . فلم يعصمه عن الاجرام اللوحان الحجريان اللذان كتب الله فيهما بأصبعه

«لا تقتل . لا تسرق . لا تشهد بالزور » . ولم يسمع هذا الانسان الأفعوان من قوله تعالى الاّ ما زعمه يشوع النبي قوله تعالى : سلمتكم اريحا . «صرّموا بحد السيف كل نفس فيها: الرجل والمرأة والطفل والطفلة والشيخ والشيخة ، وأخيراً أحرقوا المدينة بالنار . »

كذب الذين كذبوا عن لسان يشوع . الله لم يقل هكذا

فاذاً . كيف نحارب شرّ هذا الانسان الحيوان الافعوان ؟

يجب أن نقتل حيوانيته ، ونربي انسانيته ، وندمّث خلقه لكي يرتدع من نفسه عن الشر

إذا كان هذا الإنسان الحيوان يبرر جرائمه بنص من الكتاب المقدس فكيف نتوقع أن يهذب حيوانيته ويدمّث طبعه ويقتل الذئب الذي فيه ؟

هذا الإنسان لا يزال حيواناً ضارياً ، وقد ورث ضراوته من سلفه الحيوان الأعجم وأضاف إليها الجشع والخبث واللؤم . فاعتداؤه على غيره طبع فيه . ولكن لما ارتقى الى الانسانية واستنبط هيئته الاجتماعية بغية التعاون والتكافل والتعاضد في تحصيل الرزق ودرء الضرر واتقاء عوادي الزمن ، صار يحاول أن يقتل الذئب الذي فيه بأن يقلل من شرّه ويرتد عن طغيانه قليلاً . ولكن بكل أسف لا يزال حيواناً ضارياً في كثير من الاحوال ، لا يزال دنيئاً يفترس . لا يزال أفعواناً يلدغ لكي يصرع قرينه ويلتهمه . فكيف ننزع منه هذه الطبيعة الحيوانية .

لم يعد ينهش خصمه مباشرةً بل صار يقتله بقوّة القانون . قبل أن اخترع آلات التدمير اخترع شيئاً اسمه القانون . فهو لا ينهش مباشرةً وانما ينصب أحبولة للتهلكة . وهذه كالموت تقضي على الخصم . ان لم تقضِ فبالسيف ، وان لم تكفِ فبالمدفع ، وان لم تكف فبالطائرة المقنبلة ، فبالقنبلة الذرية . وهكذا هو يترقّى في الشر أكثر من ترقيه بالمدنية .

رأينا أن التهديد بنار جهنم لا يردعه ، والوعد بسعادة النعيم لا يغريه ، والطبيعة الحيوانية لا تزال متغلبة فيه . فما العمل ؟

نحن نرى في الانسان حتى الحيوان أخلاقاً طبيعية حسنة يمكننا أن نستغلها فيه ونستعين بها في تدميث اخلاقه .

في الانسان خلة العادة وهي خلة في الحيوان أيضاً . اذا تعوَّد الانسان أمراً صعب عليه أن يعدل عنه .

رأيت مرَّة جوادين يخرجان من الاسطبل بدعوة من صاحبهما . وإذا هما من تلقاء أنفسهما يقتربان الى المركبة ويقفان أمامها الى جانبي العريش لكي يشدهما صاحبهما الى المركبة ويلقمهما اللجامين ، فيفتحان فكيهما له من غير امتناع بل برضى ، لأنهما تعوَّدا أن يُشَدَّا الى المركبة .

وكان كلبي اذا رآني أحمل بساطه القديم الى مكان راحته يتبعني الى أن أفرشه له فيبرك عليه ، ثم أرد عليه حاشيته كغطاء . وكان اذا رآني أتهيَّأ للخروج في ميعاد معين يأتيني بالرسن لكي أقوده به . وكنت أرى الدجاجات متى غربت الشمس تأوي الى سكنها من تلقاء نفسها فيوصد بابها عليها حتى الصباح .

والرضيع متى عُوِّد أن يُلقَم ثدي أمه في ميعاد معين فلا يطلبه إلاَّ في ذاك الميعاد والطفل إذا عُوِّد أن يمضي الى المدرسة فلا يمكنك أن ترده عنها مهما كان فيها من ملل واجهاد عقلي . لأن العادة تسلطت عليه ، ولذلك قيل « العادة خامس طبيعة » . فاذا عُوِّد الأطفال والأحداث العمل الصالح والصدق والأمانة صارت هذه الفضائل طبيعة فيهم .

ثمَّ في الانسان مزية عزَّة النفس والشمم والكرامة . فاذا أُفهم الغلام ان الكذب مثلاً أمرٌ قبيح وعار وشين فيكفي أن تقول له : « أليس عاراً أن تكذب ؟ عيبٌ عليك أن تكذب أو تسرق . الكذب أو السرقة رذيلة . والرذيلة توسِّخ النفس وتشوِّه السمعة » . اذا أنَّبته هكذا كان هذا التأنيب أفعل فيه من أن تقول له . « ان كذبت أو سرقت تذهب الى جهنم النار » . وهو لا يعلم ما هي جهنم وأين هي . وما دامت جهنم بعيدة عنه وميعادها بعيداً فلا يجزع لها .

قل للطفل أو الغلام : « تصوَّر أن رفيقك سرق منك قلمك أو دفترك فهل تبقى راضياً ؟ ألا تغضب عليه ؟ وقد تشتمه أو تضربه . إذن اذا سرقت قلمه يغضب ويشتمك وقد يضربك . فما لا تريد أن يفعله بك فلا تفعله به » . هذه الآية الذهبية تؤثر في نفس الغلام أو الطفل أكثر من التهديد بنار جهنم . ومتى تعوَّدها استحكمت فيه وكانت خير

رادع له عن الخطيئة . وتكرار تذكيره بها يجعلها خلقةً فيه .

اجتهد أن تثير في الانسان عزّة نفسه وشممه وكرامته لكي تردعه عن الأذى والدناءة، واما أن تخوّفه بنار جهنم وبعذاب الجحيم فلا يرعوي ما دام بينه وبين الجحيم عمرٌ يظنه طويلاً ، فضلاً عن رحمة الله . وكثيرون من الناس يحسبون جهنم خرافة أو هي أسطورة قديمة من زمن الجهل . فلا يمكن أن نستغلها في تربية الأخلاق .

والانسان مغرم باعتبار الناس له وبالشهرة بينهم ، ويلذ له أن يتحدَّث الناس بمحاسنه ومحامده . فلنستغل هذه الرغبة فيه . والانسان يأسف أن يحتقره الناس لفرية ارتكبها . فاذا نسبت إليه منقصة حاذر أن يرتكبها . فاذاً نذكر له مناقبه ونتحدَّث بمحامده أكثر منها ونتحاشى ذكر النقائص . فهو لا يحسب حساباً لنار الجحيم كما يحسب حساب لغط الناس، بموبقةٍ تنسب إليه فاذاً يجب أن نربي في الطفل هذا الشعور بعزة النفس والنخوة والكرامة لكيلا يفرّط بها

التربية منذ الصغر على هذه الأخلاق السامية هي التي تنمو مع الطفل الى ان يشيخ . ولهذا قيل « من شبَّ على خلقٍ شاب عليه » .

روى لي صديق قال : كنت نزيلاً في بيت في لندن واذا طفلة البيت وهي في السابعة من عمرها تبكي .فسألتها لماذا تبكين ؟ قالت كسرت إناء ثميناً فستغضب أمي عليَّ . فقلت : قولي لها اني أنا كسرته وسأدفع ثمنه . قالت : لا أكذب . قلت : حسناً . فأتشفع بك عند أمك وأدفع لها الثمن . قالت : لا تقبل أمي الشفاعة ولا الثمن .

هكذا يتربى الصغار على الصدق والأمانة وسائر الفضائل .

فلكي نقتل الذئب في الانسان يجب أن نثير فيه منذ الصغر ما عنده من كرامة النفس وعزتها والشمم والنخوة . وإذا ربي على هذه القاعدة فلا يشب حتى يصير رجلاً صالحاً

وإنما هناك عوامل تناهض هذه التربية الصالحة السديدة وتفسدها وأهمها العشرة . فاذا كان معشر الفتى أو الفتاة فاسداً فهو يهدم ما تبنيه التربية .

ولاصلاح هذه المفسدة يجب أن تكون التربية عامة تشمل جميع الأسرات فتلطف جدًّا حدة هذه المفسدة .

أظن أن سر تفوق التربية الانكليزية هو انها عامة شاملة لجميع الطبقات والعناصر. ولكن يظهر أن شدة اختلاطها أخيراً بالأمم الأخرى شرعت تفسدها.

تبتدىء التربية الصالحة في البيت ثم في المدرسة ثم في المعشر.

يجب أن يكون الأبوان أولاً صالحين فاضلين يسلكان لدى أولادهما السلوك الذي يفرضانه عليهم. وإلا فعبثاً أن يربيا. فاذا كان الأب يكذب على الأم وعلى الأخ فهم الولد أن الكذب سنة الأسرة وان المكر شطارة وان الخداع حكمة. وانه إذا كان لا يعرف كيف يحتال بالكذب والخداع كان «عبيطاً» وإذا كان لا يعرف كيف يخدع فلا يعرف كيف يرتزق. فاذا شبّ الولد على هذه العقيدة وجد نفسه في مستقبله مجاهداً جهاداً عسيراً في سبيل الرزق، لأنه يفقد ثقة الناس فيه فتصعب جداً معاملته لهم.

وإذا كان كل من الأب والأم يهين الآخر ويشتمه ويتلفظ الألفاظ البذيئة والنابية فلا يعجبا إذا جعلا الولد يهينهما ويشتمهما متى بلغ أشده. وإذا صار البيت بؤرة عربدة وخصام بين الوالدين والأولاد فأي عيشة هذه؟ وكيف يشب الأولاد في هذا الوسط الجهنمي! وكيف يمكن الولد في بيئة سلام وبين الأنام؟.

يكفي أن يكون سلوك الوالدين قويماً حتى ينمو البنون قويمي السلوك من غير زجر أو تأنيب أو اهانة. فاذا شب الولد في بيئة صالحة كهذه شعر أبواه أنه خير صديق لهما مخلص في طاعتهما، أمين في معاملتهما، صادق في حبهما، وهو يشعر أنهما أقوى سند له. وكانوا جميعاً في غبطة ليس أعظم منها في السماء.

ومتى كانت العشرة في البيت هكذا سهل على الوالدين أن يمنحا أولادهما خير النصائح والتعليم، وأمكن البنون أن ينتفعوا جداً من نصائح والديهم وتعليماتهم. وكان النجاح للبنين مكفولاً.

روي أنه كان وليم جايمس الفيلسوف الأميركي طالباً في إحدى الجامعات الألمانية. فورد اليه خطاب بأن أباه في مرض الموت. فكتب وليم إلى أبيه: وداعاً يا أبت. لقد كنت الشخصية المركزية في حياتي العقلية والعاطفية. إن مالك عليّ من دين يتجاوز كل تقدير. فقد كان أثرك في نفسي مدة حياتي كلها (نقلاً عن الأستاذ سلامه موسى).

فانظر ماذا كان تأثير هذا الرجل في ابنه وهو نتيجة تربيته له .

لما انتهى ابن ركفلر الثري المشهور من الدراسة وحصل على الرتبة الثقافية اللازمة له تقدم الى أبيه وقال له : لقد انتهيت يا أبتاه من الدراسة وحصلت والحمد لله على الشهادة التي كنت توجهني اليها . فأشكر عنايتك عظيم الشكر بتربيتي وتثقيفي . والآن صار يجب عليّ أن أعمل عملاً أستطيعه . فأرجو منك أن تعينني رئيس دائرة من دوائر أشغالك .

فقال ركفلر الأب مبغوتاً : رئيس دائرة ؟

– نعم رئيس دائرة حسابات الزيت مثلاً .

فهز ركفلر رأسه ضاحكاً وقال : أجل . اعلم أنك برعت بالحساب التجاري ، ولكن الأشغال مهما كان نوعها لا يمكن الوثوب الى مناصبها وثوباً بل لا بدّ من الصعود اليها درجة درجة . يجب أن تبتدىء كما ابتدأت أنا . تبتدىء من تحت حتى تصل إلى فوق ، الى رئاسة مكتب .

ففكر الابن هنيهة . ثم قال : حقًّا ما تقول . وليني العمل الذي تريد .

فقال له الأب . لا ، كلاّ . لاتصلح للعمل عندي . ابحث عن وظيفة عند غيري . ومتى صرت عند غيري رئيس دائرة فعد اليّ . والآن كل ما أستطيع أن أفعله لك هو أن أعطيك كتاب توصية .

فخرج ركفلر الصغير من لدن أبيه شبه يائس . ثم قلب صحيفة ومرّ على الاعلانات المبوبة التي فيها وهي مئات وألوف . فلفت نظره اعلان معمل يريد كاتب حسابات . فقدم اليه في البريد برسالة يعرض نفسه للخدمة . وفي اليوم التالي ورد اليه خطاب استدعاء الى المحل الذي كتب له . فما تردد أن تقدم اليه بنفسه شخصيًّا وجرت بينهما السين والجيم . وقدم له شهادته المدرسية . وطلب مدير المحل منه كتاب توصية من أحد الناس المعروفين، على الرغم من أنه عرف أنه ابن ركفلر .

فعاد الفتى الى أبيه وقال وعدتني بكتاب توصية فأرجو أن تبر بالوعد . فما تردد الأب أن أعطاه كتاب التوصية، فمضى به الى مدير المحل وأخذ الوظيفة بماهية عشرة دولارات في الاسبوع . وهي أحقر ماهية يتمناها موظف في ذلك العهد .

وما لبث أن جعل يرتقي تدريجاً في المحل الى أن صار رئيس القلم . بعد ثلاث سنين استعفى من هذا المنصب وأعطاه صاحب المحل شهادة حسنة . فمضى بها إلى أبيه قائلاً : « لقد صرت رئيس مكتب » . ودفع اليه الشهادة .

فقال أبوه : حسناً . الآن تليق أن تكون رئيس دائرة عندي . فتولى الوظيفة وبرهن عند أبيه على جدارة عظمى . وشاخ أبوه . وأورثه عشر ثروته البالغ مئتي مليون جنيه . ووقف الباقي على معهد ركفلر لكي ينفق على الثقافة العامة في جميع أنحاء العالم .

بعد ذلك الزمن الف ركفلر الشيخ لجنة وضع تحت يدها مئة وثمانين مليون دولار وسميت « معهد ركفلر » ورصده لعمل الخير. ولا تزال الى اليوم تعمل الأعمال الصالحة، وابن ركفلر نفسه رئيس هذه اللجنة

فلو كان ركفلر قد ولى ابنه أعماله أو بعض أعماله منذ خروجه من الجامعة لما كان يعلم غير الله ما ذا يكون مصير ثروة ركفلر . على هذا النمط ربى ركفلر ابنه منذ الصغر وجاء ابن ركفلر رجلاً صالحاً

* * *

أجل أن تربية البنين الصالحين تستلزم أن يكون الوالدون صالحين أولاً . ولكن اذا لم يكن الوالدون هكذا فكيف يمكن أن نربي النشء وليس عندنا أب ولا أم يصلحان للتربية ؟. لا أعني انه ليس عندنا والدون صالحون على الاطلاق . عندنا جانب عظيم من الآباء والأمهات يصلحون لتربية الأولاد ولهم أولاد يفتخر بهم من حيث الأخلاق ولا أقصد بكلامي فئة دون فئة وطبقة دون طبقة وطائفة دون طائفة . بل أريد الكلام عن جميع الطوائف والطبقات . ولا أظنكم تجهلون أن عندنا في الشرق نقصاً كبيراً في التربية وقلة في الوالدين الصالحين للتربية . فاذا لم يكن عندنا جميع الوالدين صالحين للتربية . لا أب ولا أم فمن يربي . ومن يربي الأب والأم . واذا تقدمت الأمة ضعيفة الأخلاق من جيل الى جيل بسبب قلة المربين من والدين ومعلمين فما العمل . هذه مشكلة صعبة لعل بعض القراء يرشدون الى حلها

الام وحدها مسؤولة عن تربية الاولاد

لقد ألقت الهيئة الاجتماعية على كاهل المرأة قسماً من العمل يعده السواد الأعظم من الناس واجباً خفيفاً لطيفاً . فقالوا ماهو الا ولادة الأولاد وحضانتهم وتربيتهم تربية جسدية الى أن تستلمهم المدارس . هذه مهمة لطيفة تليق بالجنس اللطيف فلا تستلزم عناءً ولا جهاداً ولا مشقة . ولذلك لم تعط العناية اللازمة لها . فكان هذا الحسبان علة ضعف التربية عندنا . وهذا خطأ . ان قسم المرأة من العمل في المجتمع الانساني ليس بالواجب الخفيف اللطيف ولا هو بالثانوي كما يظن كثيرون . إن العمل الذي هيأته الطبيعة والسنن الالهية للمرأة ليس ولادة الأولاد وحضانتهم وتغذيتهم فقط . لأن الولادة وملحقاتها سنة طبيعية تشمل جميع الأحياء . الحيوانات تلد أولاداً وتربيها أيضاً . وإنما قسط المرأة من العمل أعظم من ذلك وأسمى غايةً وأكثر ضرورة ولزوماً . قسطها من العمل أن تقدم للأمة أفراداً صالحين للاندماج في جسم المجتمع وأن تمدّ هذا الجسم بحيوية قوية . نصيب المرأة من العمل أن تقدم للوطن شباناً وشابات أقوياء جسداً وعقلاً وأخلاقاً لينهضوا بالبلاد

فمهمة الوالدة الرئيسية ليست أن تلد أولاداً فقط، بل أن تلد أمةً . مهمتها الأساسية ليست أن تحتضن بنين، بل أن تحضن وطناً . ليست مهمتها أن تربي أطفالاً ، بل أن تربي هيئة اجتماعية مترعرعة في القوى العقلية والأدبية والجسدية معاً . مهمتها أن تسبك الأمة في قالب الأخلاق والآداب العالية . مهمتها أن تهيء الناشئة لحياة اجتماعية راقية، أن تقدم للوطن رجالاً يدافعون عنه، وأن تعد الرجال للاستقلال الحقيقي . اذاً استقلال البلاد في يد أمهاتها . مهمة المرأة الرئيسية على العموم أن تلد الجنس البشري كله وأن تربيه وتدفعه في سلم ارتقائه الى العلى

هذا هو عمل المرأة فانظروا ما أعظمه عملاً وما أنبله غايةً . هذا هو نصيبها من العمل مع الرجل وهو نصيبها وحدها . وقلما يشترك الرجل معها فيه . لا يستطيع الرجل أن يقوم مقامها فيه، لأن نصيبه من العمل شيء آخر وهو الجهاد لأجل اعالة الأسرة . نعم إن الله

خصّ الرجل بالقوة ففي إمكانه أن يعمل كل شيء تقريباً ولذلك ينسب له كل عمل حتى اذا عملت المرأة عملاً خارجاً عن دائرة اختصاصها نسبوه له لا لها. فاذا كتبت أو ألفت أو نظمت في شرقنا قالوا الرجل هو الذي كتب وألف ونظم. وإذا اخترعت قالوا الاختراع له لا لها. واما في الغرب فاعترفوا بأن مدام كوري هي التي اكتشفت الراديوم، وعندنا إذا المرأة ساست قالوا الرجل ساس من وراء الستار. وكم كان هذا الاعتقاد سبباً ليأس النساء. ولكن هذا الاعتقاد قد انقضى الآن وصار النجاح في الكتابة والنظم والسياسة ميسوراً للمرأة، وصار عندنا والحمد لله كاتبات وناظمات ومعلمات ومديرات مدارس ومفتشات في المعارف. فاذا نزلت المرأة عندنا الى مضمار السياسة والقضاء أفلحت كما أفلحت في المحاماة والطب. ليس قط ما يمنع المرأة أن تنافس الرجل في أي عمل من أعماله

أما الرجل فلا يستطيع أن يباري المرأة في فن التربية والتأثير على الأولاد لأنه لم يعط المواهب اللازمة للتربية والتثقيف. يستحيل عليه أن يصبر ويسهر ويحتمل ويبذل من قواه العقلية والنفسية والروحية لكي يصوغ عقول أولاد ويكوّن أمةً أو شعباً. هذه مواهب خصّ الله بها المرأة وحدها. فتربية الأولاد هي العمل الذي تعين للمرأة في كل زمان ومكان.

وقد رأيت أهمية التربية في بناء الأمة والمجتمع. وحينما أتيح لهذا العمل مرأة مستعدة له الاستعداد الكافي كانت الأمة قوية في كل شيء ومتفوقة. وحيث لم يتح له مرأة تامة العدة والسلاح كانت الأمة ضعيفة. قال رسكن: «ان سلاح الرجل يسقط اذا لم تقلده إياه المرأة»

هذه حالنا في الشرق ولا سيما الشرق العربي. مهما بحثنا في أسباب تأخرنا وضعفنا وجدنا السبب الأساسي هو تجرد الأم من عتاد التربية. ومهما بحثنا في تدارك هذا التأخر وتفننا في وسائل معالجة هذا الضعف وجدنا أنفسنا أخيراً أمام الأم وحدها. فنحن في حاجة الى أمهات كأم وشنطن محرر اميركا. كانت أرملة وربت ابنها فقاد الأمة الأميركية في حرب التحرير حتى انتصرت واستقلت. ولما انتخبه الشعب رئيساً قال: يجب أن أشاور أمي أولاً. فذهب الى أمه مع وفد من البرلمان الاول وسألها هل توافق أن يتولى رئاسة حكومة الولايات المتحدة. قالت: لماذا لا؟ لهذا ربيتك: قال: ربيتني لقيادة الجيش. قالت ولقيادة الشعب أيضاً، فامض على بركات الله. الشعب انتخبك وصوت الشعب من صوت الرب

نحن في حاجة الى أمهات كهذه تقود الشعب عن طريق تربية قواد الشعب. الحياة البشرية كالسفينة في اوقيانوس الاجتماع المتلاطم الأمواج. والرجل هو القوة الدافعة لهذه

السفينة ، والأم هي ربان السفينة الذي يدير الدفة . فاذا لم يحسن الربان ادارة الدفة فالقوة التي تدفع السفينة تدفعها الى الصخور فتتحطم . والبرهان : —

إذا كان محتوماً بحكم السنن الالهية والطبيعية أن يبقى الطفل في عهد طفولتهِ تحت سيطرة أمهِ وتأثيرها في نفسيته ، وإذا كان يتعذر جداً أن يكون للأب أقل سيطرة أو تأثير على الطفل ، وإذا كان دماغ الطفل في عهد الطفولة والحداثة كالشمع اللين تنطبع فيه المؤثرات انطباعاً يبقى مدى الحياة، فالخلق الأول الذي يتخلق بهِ الطفل هو الذي يعين له وجهة مسيره في الحياة . فمهما تراءى لنا عمل الأم في بدءِ الأمر بسيطاً فهو يعين مستقبل الطفل إن صالحاً أو طالحاً . وكذلك يتعين مستقبل الأمة كلها بحسب تأثيرات أمهاتها في أخلاق أطفالها .

فتأمل اذاً ماذا تكون ناشئتنا إذا كانت معظم أمهاتنا كما نعلم من الجهل وسقم العقل ؟ يتكل الكثيرون في تربية أولادهم على المدارس ويعتقدون أن ما فات الطفل من تربية الأم يناله في المدرسة . وهذا الاعتقاد من جملة أسباب اعتبار تربية الأم شيئاً ثانوياً وتقليل أهمية نصيب المرأة من العمل . ونحن في حاجة الى أمهات يربين مربين أيضاً

ترى أن نصيب المرأة من العمل عظيم وشاق جداً. ولكن الله منحها خمس مواهب رئيسية ليس للرجل مثلها الا ظل لها . وبهذه المواهب تستطيع المرأة أن تقوم بهذه المهمة العظمى وهي : —

أولاً : جلدها وصبرها في زمن الحضانة

ثانياً : تناهيها في المحبة الوالدية الى حد التضحية حتى تضحية النفس

ثالثاً : مقدرتها على إعداد الغذاء والكساء

رابعاً : حفظ النظام وحب الأدب والحشمة

خامساً : الحرص على الجمال للارضاء والمسرة وجعل البيت جنة

وهي خصائص للمرأة ليست ميسورة للرجل الى حد أن يستغنى بها عن المرأة . وهي التي جعلت نصيب المرأة من العمل شاقاً من جهة ، وخطير الشأن من جهة أخرى ، وعظيم القيمة

وسأعود إن شاء الله في حين آخر الى شرح هذه المواهب النسوية

روز (انطونيه) حداد

العزلة في رأس الجبل

نقاش بين ناسك وصحفي

٧ — صلة ما انقطع

الايمــــان

وهنا استأذنني أن يتعهد الماشية ويعد الطعام كالعادة . وقال: لك أن تفضّ الجرائد التي جاءتني وان تطالع فيها ريثما أنتهي من مهمتي . تجدها على المائدة .

* * *

ودخلت الى الغرفة أبتغي الجرائد فرأيت ثلاثاً من جريدة واحدة وكتاباً موضوعه « تعاون الحيوانات » وكنت قد اطلعت عليه منذ عام حين صدوره . ثمّ لمحت الخطاب الذي كان سبب تجهمه وعنوانه « من يد سيادة رئيس الدير ... للمعتزل في رأس الجبل». فحدثتني نفسي أن أفضّه وأطّلع عليه . ولكني ما لبثت أن ارتدعت لأني رأيت أن اطلاعي عليه خيانة، بعد ما جرى بيني وبينه من الأحاديث والنقاش . فيجب أن يكون لي رادع من نفسي .

— وهل يمكن أن يعلم أني اطّلعت عليه ؟

— اذن أكون لصّاً .

— لعله يريد بتركه على المائدة أن يمتحن أمانتي .

— اذن لا أطّلع عليه .

وخرجت بالجرائد وجلست أطالعها تحت الشجرة الوارفة الظل وقضيت بقية النهار أكتب مذكراتي .

* * *

ولما انتهى من تعهّد الماشية خرج من الحظائر يقود حَمَلاً صغيراً وهو يقول:

سنأكل الآن لحماً مشوياً رخصاً جداً لا أظنك ذقت مثله . وهو في الشهر الثالث من عمره

قلت : رُحماكَ لا تذبحه . نحن اثنان لا يمكننا أن نأكل نصفه . ناهيك عن أني أشفق على هذا الطفل وعلى أمه

قال : ما أنت أكثر شفقة مني . وما كنت مزمعاً أن أطعمك لحمه إلاّ لشدة اكرامي لك. ندع هذا الحَمَل وأمه يتمتعان بطفولته . وليتمتع هو بصباه وشبابه . متى صار كهلاً ينتهي عمره بحق . انما هو جاء الى العالم لكي يكون فداءً للعالم . فقد كان منذ القديم غذاء الكهنة الذين كانوا يضحّون به للآلهة . وليس للآلهة مِعَدٌ تهضم لأنهم أعاروها للكهنة .

ثم ردَّ الحمل الى أمه . وذبح دجاجتين حوليتين وطبخهما حين كنت أدوِّن مذكراتي

بعد القيلولة سألته : أما أرسلت رجائي لحضرة المحترم رئيس الدير أن يرسل لي بغلاً لكي أعود ؟ إني مستبطيء المكاري (لأنه كان قد ردَّ البغل الذي جاء به مع المكاري الذي جاء بالأمس)

قال : لا تهتمَّ بالعودة . أحد جوادي يوصلك الى الدير بأمان . وهو لا يضل الطريق والطريق مطروق ليس طريق غيره . اذا أصررت على العودة فغداً إن شاء الله .

— شكراً جزيلاً . أيهذا الصديق الذي لا تثمن صداقته . أرجو قبل أن أبرح من عندك أن تسمح لي بسؤال قد لا يحق لي أن أسأله لأنه خاص بشؤونك الشخصية .

فنظر فيَّ متجهماً وقال : ماذا ؟

قلت : رأيتك أمس قد تجهَّمت وعبست حين فضضت الخطاب الذي جاءك به المكاري. فهل بلغ إليك خبرٌ سيئ ؟ وهل يمكنني أن أخدمك خدمة بشأنه ؟

فابتسم وقال : شكراً ، ليس للخطاب شأن خطير . هو من سيدة لا أعرفها . اطلعك عليه .

ودخل في الحال الى مخدعه وعاد بالخطاب وألقاه في يدي . فقرأت : —

« سيدي الناسك في رأس الجبل

«تلقيت ردَّك الكريم على خطابي، فأشكره لك عظيم الشكر على الرغم من اقتضابه . لماذا

لا تسمح لي بمقابلة ساعة في رائعة النهار في يوم تعينه أنت؟ لأني أود أن أستفهم منك عن بعض نقط في كتابك النفيس « المجهودات العشر » . أكرر رجائي . فلا تقل « لا » . وألف شكر

المخلصة . . . .

قلت : لا أظنك تبخل باستقبالها

قال . كتابها الأول انطوى على تقريظ لذلك الكتيب المجهول العاثر الحظ . وقد أطنَبت بالمدح والثناء . ولأني لا أعتقد أن الكتاب يستحق شيئاً من ثنائها، حسبت الثناء مداهنة وطبعي ينفر من المداهنة . وطلَبَتْ اليَّ أن تزورني فرجوتها أن لا تتكلف نفسها الزيارة ، لأن المزور لا يستحق ذلك الثناء فكيف بالمزيد منه

قلت : وماذا ترد على خطابها هذا ؟

قال : عدم الرد هو رد

قلت : أرى أن عدم الرد لا ينطبق على أخلاقك

قال : من شرّين أختار أهونهما . عدم الرد شر وتبادل الردود بيني وبينها الى ما لا نهاية له شرّ آخر . فالأول أهونهما

قلت : تعني أنك لا تقبل زيارتها بتاتاً

قال : بل لا أقبل زيارة أحد البتة . ولولا توصية سيادة الورع رئيس الدير ما قبلت زيارتك . على أني ما ندمت عليها . بل أشكرها لسيادة الرئيس

— اذاً لا تأبى أن أكررها

— بالعكس أود تكرارها . لأني أنستُ بمن أفهم علمه ويفهم جهلي

قلت : هذا تناهٍ بالتواضع ياسيدي . ما ذا يمنع أن تقبل زيارة هذه السيدة لعلها جميلة تصلح شريكة لك في هذه الوحدة هنا (قلتُها مازحاً ضاحكاً)

قال : — وي . وي . وي . لاريب أنها جميلة لأن خطابها ينم عن معرفة وذكاء وهما منتهى الجمال . ولكن ما ذا تنتظر هذه المرأة مني وقد أشرفتُ على أرض الميعاد التي رآها موسى الكليم من بعيد ولم يدخلها ، لأنه مات قبل الدخول اليها كما دعا عليه الرب

— كيف ذلك وأنت في أول الكهولة

— لست تحسن الفراسة . أفي سن السبعين يكون المرء كهلاً ؟

فدهشت وقلت . سن السبعين ؟ ؟ لا أصدق أنك تجاوزت الخامسة والأربعين . هذه السحنة وهذه العافية وهذه الهمة لا تُضمر أكثر من الشبيبة وطالع الكهولة

— الفضل في هذه المذكرات لهذه الطبيعة ولهذه الأسرة المباركة

* * *

بعد سكون هنيهة فيما أنا لا أزال أقلب خطاب السيدة قلت : هنا تنويه بكتاب ، بقلمك أتأسف اني لم أقرأه بل لم أسمع بخبرهِ

قال : هو بيضة الديك . لا تأسف لأنه لو كان يستحق أن تسمع بخبرهِ لسمعت . هو كتيب حقير في موضوع جاف . ولهذا لم ينتشر ولم يعبأ به أحد ولم تكتب الصحف عنه ما يُستلفت النظر اليهِ . ولعلّ ما كتبته الصحف عنه ينفر القرّاء منه. لأنه مَن مِن الناس يكترث بالمجهولات العشر وهم قلّما يعبأون بالمعلومات

قلت . لقد أصبحت شديد الشوق الى الأطلاع على هذا الكتاب . سأبحث عنه في المكاتب

— لا تجده الاّ في مكتبتي . لأن المكاتب لم تقتنهِ

ودخل في الحال الى البيت وعاد بنسخة من كتيب صغير لا تتجاوز صفحاته السبعين فقلّبته واطلعت على فهرستهِ . فاذا المجهولات العشر هي : —

« ١ » — المبدأ الأول — « ٢ » الروح — عالم الأرواح — « ٣ » السرمدية — « ٤ » الخلق والخليقة — « ٥ » العدم — « ٦ » السببية — « ٧ » الحياة — « ٨ » سر العقل وصلته بالجسد — « ٩ » القوة القصوى والحركة — « ١٠ » مصير التطور

وقلت : لا أصبر عن قراءتهِ دقيقة

قال : إذن أتركك معهُ وأنا أنضم الى إخواني

* * *

انتهيت من مطالعة الكتاب قبيل غروب الشمس على الرغم من أن مباحثه عويصة تدل

على تعمق صاحبنا بالعلوم. (وقد ألحقت في هذا الكتاب فصلي الروح والخلق منه كنموذج له، ولما فيهما من سهولة التعبير ووضوح الموضوع ومن العلاقة بالحوار الذي دار بيننا)

* * *

بعد العشاء جلسنا عند مرتفع الجدار العالي المشرف على الوادي وقلت له: ترى هل اطلع سيادة رئيس الدير على هذا الكتاب؟

— لا أدري. ربما اطلع عليه

— لا أظن، وإلاّ لما سمح بأقل صلة بينك وبينه، بل لحرمك الاتصال بالمؤمنين، لأنك ظهرت ملحداً في بعض فصول الكتاب، ولا سيما القصيدة الملحقة بفصل الخلق والخليقة

قال: لا أظنه كان يحرمني أو يغاضبني لأنه لاهوتي عالم يفهم ما أعني. ولو ناقشني لأبنت له أني أشد منه ايماناً بالله الذي جعلته في أعلى مقام في الخليقة

قلت: غريب قولك هذا. فصل الخلق لا يفيد ما تقول.

قال: بلى. اللاهوتيون الذين حاولوا أن يثبتوا وجود خالق غير مخلوق هم أنفسهم خلقوا الله على صورتهم ومثالهم. أما أنا فلم أخلق الله بل هو خلقني من طين الأرض ونفخ فيَّ نسمة الحياة.

قلت: لم أرَ في كتابك هذا القول.

قال: لم ترَه وإنما يمكن أن يفهم من فصل الحياة جيداً أن الحياة نشأت أولاً مادة هلامية من تآلف كيماوي بين عناصر بسيطة. ثم تحركت بقوى التجاذب المختلفة. جاذبية الثقل والجاذبية الكيمية وجاذبية الالتصاق وجاذبية الملاصقة والجاذبية الشعرية وجاذبية الامتصاص الى غير ذلك، مما يجعل جزيئات المادة تتجمع وتتفرق فيما تتحد وتنحل بفعل الألفة الكيمية. هذا موضوع لا يكفيه فصل في كتاب، بل يقتضي كتاباً قائماً بذاته يتصدى له من هو أغزر علماً مني(١). وحاصل القول أن الحي نشأ من التراب. وسر الحياة فيه صادر من القوة القصوى المنظمة الكون. فأصحابك اللاهوتيون بحثوا عن الله بالمجهر (الميكروسكوب) لأنه عندهم شبه انسان فكبروه. وأما أنا فبحثت عن الله

---

(١) تراه في كتابي «فلسفة الوجود»

بالمنظار (التلسكوب) لأنه عظيم مالئ الكون ، فقربته إليّ أو أنا اقتربت اليه . أنا وصفت الالهي بأنه القوة العظمى مصدر جميع القوى — القوة القصوى الموجودة في كل مكان وزمان المسيرة هذا الكون . وأمام فوصفوا الالهم بصفات انسانيتهم . جعلوه انساناً عظيماً ، نعتوه بالرحيم الغاضب المنتقم النادم المحارب الغافر الخ . فالالهي أعظم جداً من اللهم .

قلت : وما قولك بالوحي ؟

قال : قولي نفس ما قاله داود النبي الشاعر الكبير : «السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه . يوم الى يوم يذيع كلاماً ، وليل الى ليل يبدي علماً . لا قول ولا كلام . لا يسمع صوتهم ، في كل الأرض خرج منطقهم . والى أقصى المسكونة كلامهم الخ » . (المزمور التاسع عشر) . فهل وحيهم أصدق من وحي الطبيعة .

قلت : وما قولك بالرسل والانبياء .

قال : أعظمهم وأمجدهم كلهم لأنهم اهتدوا الى سر الألوهية الحقيقية في المحبة والفضيلة والصلاح ، وهدوا الأمم الى هذه الألوهية التي بها يسعد البشر ويقوم السلام بين الأنام . وهل تحسبني متعصباً أو متشيعاً إذا قلت أن تعليم يسوع الناصري هو أعظم فلسفة اجتماعية أدبية تصان بها المدنية من الانهيار . وإذا كان الجنس البشري لا يتخلق بأخلاق الناصري وأخلاق غيره من الرسل والأنبياء الذين كانوا يدعون الشعوب الى التوبة والصلاح — فلا يضمن اطراد رقيه واقترابه الى ملكوت السلام . لأنه متى صار كل واحد يحوّل الخد الأيسر لمن يلطم خده الأيمن فلا تعود تجد أحداً يلطم خداً البتة . ومتى صار كل واحد يحب أعداءه ويبارك لاعنيه فلا تعود تجد عدواً لأحد ولا أحداً يلعن أحداً . متى عمل جميع الناس بهذا التعليم صاروا اخوة يعطفون بعضهم على بعض . وهناك فئة من الفلاسفة والحكماء يستحقون التعظيم مثل كنفوشيوس وسقراط وغيرهما من حكماء الشرق . أيكفيك هذا الاعتراف مني اقناعاً لك بأني مؤمن بالله الحقيقي المجرد من جميع الترهات والخرافات ، ومبجل الرسل والأنبياء الذين دعوا الناس الى الصلاح

قلت : نعمّا هذا الايمان القوي

* * *

بعد سكوت هنيهة : قلت يلوح لي أن حادثاً خطير الشأن قضى باعتزالك هنا

قال : لم يحدث لي أخطر مما يمكن أن يحدث لغيري من الناس . وإنما ليس كل الناس تتحمل أعصابهم صروف الزمان

قلت : ان صروف الزمن عديدة ومتفاوتة الضرر والإيلام . فأيها ضغط على أعصابك يا ترى ؟

فقال ضاحكاً : يالله ! أليس فيما تناقشنا بهِ من شرور البشر كفاية لسحق الأعصاب ؟ ماالجأت الى هذه العزلة الاّ لكي أبتعد عن اؤم الناس ودسائسهم ومكرهم ورذائلهم وأتمتع بصداقة هؤلاء البهائم الذين أعيش معهم

قلت : يقال أنك نُكبت بفقد أسرتك في حادث صاعقة إذ كنت متغيباً عنها فسلمتَ فلعلَّ هذا الحادث كان سبب زهدك

قال : هذا حادث أليم جدًّا طبعاً . وما من إنسان يسلم من فواجع الزمان فيسلّم أمره لله . ما فقد أسرتي بقضاء الله أو بحادث طبيعي بأفجع لنفسي من معاملات الناس الرديئة

أخلصت للاصدقاء فخانوني
صدقت مع عملائي فخدعوني
خدمتُ القصّادَ اليَّ فنهبوني
كنت حرَّ الضمير فعوقِبت
كنت أميناً فاتُّهِمت
كنت مؤاسياً للمصابين فتُركت بلا مؤاسٍ في مصيبتي

فماذا أقول لك غير أني وجدت نفسي أني لست من هذا العالم فنبذني العالم الى هنا .

قلت متأثراً جدًّا من مرارة نفسهِ : سأبرهن لك أن في العالم واحداً مخلصاً لك

* * *

ودّعته في صباح اليوم التالي على أمل زيارة أخرى اذا سمحت الأحوال

حرية الطبيعة

بين الحصان والاوتومبيل

كان الحصان يعدو في الحقل الرحيب، لا يلوي على شيء، يكاد يسابق ظله، لا تبصره الاّ لمحاً، فلا تمتلىء عينك منه، يتعنفص كأنه معجبٌ بخفة روحه.

واذ أوتوموبيل مندفع في الطريق المحاذي للحقل، وإذا الحصان يراكضه حتى وقف لدى مدخل الحقل الى دار المزرعة. فما كان من الحصان الاّ أن رفسه رفسة مرح وبطر.

فقال الأوتوموبيل: آسف جدًّا يا صاح: — فالتفت الحصان قائلاً: العفو يا أخي. الحق عليّ لأني أنا رفست. فأعتذر لك.

فقال الأوتو.. ولكني لم أوجع، بل أنت وجعت، فعسى أن يؤاسيك خادمك ويعالجك

فقال الحصان: أجل ان خادمي يحبني حبًّا جمًّا ويعني بي عنايته بعينيه. فهو بَسْطُ البنان معطاء اللهى، غمر الندى. يغدق عليّ البرسيم الطيب المضاغ، ويجرعني الشراب الطيب المنزعة. وتترفّم يداه عليّ بالعلف الغني بالشمير

فقال: الأوتو... صه. صه. لماذا كل هذا التقعير في التعبير؟ فهمت أنه يعطيك بسخاء، وكفى

— أجل ويسكنني إصطبلاً ضخم العتبة رحب الفناء تركز فيه القنا الذبل

— كفى كفى فشخرةً

— لا تقل فشخرة، فما هي من لغة البادية قل عنجهية أو تبجحاً

فقال الأوتو...: طيب. ولا بد أنك تكافىء خادمك هذا خير مكافأة على هذه العناية الصادقة

— بالطبع أعتز حين يمتطي صهوتي.... فنزق الأتوموبيل وقال مقاطعاً: يمتطي

صهوتك ؟ ألا تعرف أن تقول « أحمله على ظهري » . ؟ نحن ياهذا في عصر الكهرباء عصر السرعة والاقتصاد والتسهيل . ألا تزالون أيها الخيل تلتفتون الى عصر الجاهلية فتتكلمون بالألفاظ المهجورة التي لا يفهمها مخاليق هذا العصر . ياأخي سايروا العصر

— ولكنك فهمتها أنت .

— ليس كل الخلائق متثقفين مثلي

— بماذا تثقفت ؟

— تثقفت في كلية الميكانيكيات وهي أعظم كلية في هذا العصر . وأنت هل تثقفت

— أجل . أنا تثقفت في جامعة الطبيعة ، ولا أزال أدرس الأدب والشعر والفن حين أجوب الجرباء . . .

— إهْ . إهْ . ماذا تقول ؟ تجوب الجرباء ؟ ألا تعرف ياأخي أن تقول أطوف الأرض ؟ هذه ألفاظ ثقيلة مهجورة فلا تثقّل على مسامع الخلق بها . أهذا ما أوحته لك الطبيعة من الفن والأدب والشعر

— بالطبع حين أسبح خَبَباً بين الأطواد والكثبان وأتغلغل في الخمائل والرياض ...

فقاطعه الأوتو ... قائلاً : يا أخي . ياأخي . ألا تعرف أن تقول : حين أجول بين الجبال والتلال وأعبر الأحراج والغيطان ...

— نحن ياصاح من أهل البادية فلا نتكلم الا الفصحى ، ولسنا كالحضر نمسخ اللغة مسخاً

— فقال الأوتو . . . وبهذه الفصحى المقمرة تتعنجهون ؟

— ليس في اللغة فعل عنجه وإنما فيها الاسم عنجهية

فقال الأوتو ... ألا يمكننا أن نبني فعلاً من هذا الاسم كما بنوا تمنطق من المنطقة ومن المنطق أيضاً ، وتمدرع من الدرع ، وتمندل من المنديل ؟

— لا يبنى الفعل من الاسم الا من هذه الأسماء الأربعة فقط ، وفيما سواها يشتق الاسم من الفعل ولا يعكس . هذه أصول لغتنا . فلا تتحذلق أيها الحِذْلِق

— حسن . نحن الحضر لا نحتاج الى هذه الحذلقات في اللغة . الى الآن لم تقل لي ماذا ثقفتك كلية الطبيعة

قال الحصان : حين أرعى في المروج والرياض أقول

ذهبٌ حيثما ذهبنا ودرٌّ حيث درنا وفضةٌ في الفضاء

— والله أنه لشعر جميل . أعد أعد

— وأقول في المرجة الخضراء وقد وُشّيت بالأقاحي الصفر والبيض

بساط زمرد نثرت عليه دنانير تخالطها دراهم

— وهذا والله أبدع

قال الحصان وإذا مررت بغدير والريح تلعب في وجهه أقول

وتحدث الماء الزلال مع الحصى وأتى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكأنّ فوق الماء وشياً ظاهرا وكأن تحت الماء درّا مضمرا

فقال الأوتو ... وهذا أبدع وأبدع . لله درك يا أخي . انك متمتع بالطبيعة تمتعاً لا أعرفه . فكأنّ الطبيعة خُلقت لك

فقال الحصان : إذاً بماذا تتمتع أنت ؟

لا أعرف التمتع الاّ بالجري وبما يقضيه لي عبدي من الخدم اللازمة لهذا الجري، فهو يغذيني بالبنزين ويتفقد أعضائي، فان رأى فيها علة عالجها .

— وهل تنطلق حيث تشاء

— كلاّ . لا أستطيع أن أنطلق الاّ في الطريق المستوي المعبّد . وعلى خادمي أن يمهد الطريق لي

— اذاً لا تستطيع أن تصعد الى الجبل

— بلى . لأن خادمي يمهد الطريق في الجبل متلوياً تلوي الأفعوان، بحيث يكون انحداره قليلاً جدّا فأدرج في عرض الجبل يميناً، ثم شمالاً ثم يميناً ثمّ شمالاً، صعداً صعداً . الى أن أبلغ الى القمة .

— اذن إذا كنت أنا صاعداً الى الجبل يمكنني أن أنام في طريقي الوعر ساعة من الزمن ثم أبلغ الى القمة قبلك . هل تستطيع أن تطلع على الدرج

— لا يستحيل

— أنا أطلع على الدرج الى العتبة العليا الى الايوان الى السطح مهما كان مرتفعاً . أسير في الوعور في الأدغال في الصحاري في الجبال في الوديان . وأنت لا تستطيع . إذاً فما فضلك عليّ ، ولماذا فضّلك عبيدنا عليّ ؟

— أنا أسرع منك . أقطع الجبل في دقيقة .

— وأنا أقطعه

— أقطع ألوف الأميال ولا أتعب وأنت تتعب بعد بضعة أميال . واذا جاريتني فبعد بضعة أخرى تنقطع أوتار قلبك . وزد على ذلك أن أخي « البص » يحمل من الأثقال ما تنوء أنت به

— البركة في البغل وابن عمي الجمل يحملان من الأثقال ما ...

فقال الأوتو ...

— ما لا تحتمله النعامة طبعاً . ولكن لو جمعت جميع الجمال والبغال والحمير في قافلة واحدة ما استطاعوا أن يحملوا ما يحمله قطار حديدي واحدٌ من أولاد عمي .

واني لأستغرب ان عبدنا الانسان لا يزال يثقل على الخيل والجمال والبغال والحمير ، وقد صار يمكنه أن يقضي حاجات النقل في السيارة واللوري والقطار أضعافاً بأسهل وأسرع من غير أن تتعب هذه الناقلات أو تتألم أو تجوع ما دام في الدنيا بنزين وفحم . أفما كان جديراً به أن يريحكم أيها الأسياد الأحياء وينقذكم من هذا الجهاد المضني

فقال الحصان : ان عبدنا الانسان مهما استنبط من وسائل النقل فلا يمكنه أن يستغني عن سادته الأحياء . فهو لا يزال يحتاج الى الحمار والجمل والبغل والجواد ، ولا يزال يستغيث بها ويستنجد حتى اليوم والغد . على اني أراك أيها الأوتو ... فاقد الحرية بتاتاً ، اذا رام عبدك أن تثقله سقاك بنزيناً والاّ تركك في اصطبلك سجيناً عطشاناً يوماً أو شهراً أو عاماً . أما أنا فعبدي مضطر أن يزرع الحقل لي برسيماً ويدعني أتبختر فيه وأشبع منه على هواي . أنا حرٌ . أنا حرٌ . وأنت عبد عبدك .

— قل هذا متى وضع عبدك الشكيمة بين فكيك ، والسرج على ظهرك ، والركاب في خاصرتك .

— اني أستلذ هذه القيود فهي تستفز حماستي ونشاطي . فهذه الثلاثة تقرن ارادتي بإرادة عبدي . وأما أنت فلا ارادة لك . وارادة عبدك في الآلات التي تدفعك . فهو مقيد مثلك . كلاكما عبدا الآلة

فقال الأوتو ... عجباً . وهل نسيت أنت . أن ارادتك فانية في ارادة عبدك . وارادة عبدك في لجامك وفي ركابك . يكز خاصرتك بسن ركابك فتنطلق . يكبح جماحك بلجامك فتقف . فما أنت أكثر حرية مني

— بلى : أنا أجمح اذا شئت في الغيط وأنطلق حيث أشاء . ثم أعود الى حظيرتي متى أشاء . أما أنت فلا تستطيع أن تتحرك وحدك من مكانك قيد أنملة . اسمع يا صاح إنك وعبدك الانسان أصبحتما في عصر الميكانيكيات الذي تفاخرانني به عبدين للآلة . بل هو أصبح أكثر عبودية منك لها ، فهو يفرح انه بالآلة استطاع أن يستغني عن الحصان واخوانه ...

فقال الأوتو . بالطبع . لأن مطامعه لم تقف عند حد ومطاليبه تجاوزت كل حد . فلم يعد الحصان واخوانه يكفونه للتحرك والانتقال . فاضطر أن يخترع السيارة والقطار والطيارة الخ

فقال الحصان : أجل يا صاحبي أجل إن مطامعه ومطالبه تجاوزت الحدود ، ولذلك تجاوزت عبوديته كل حد أيضاً . لقد أصبح الآن تحت رحمة عدده وآلاته ، مقيداً باختراعاته. لا يمكن أن يسافر اذا تأخر عن ميعاد القطار ربع دقيقة . لا يمكن أن ينام قبل منتصف الليل ما دام ضوضاء الشارع يقلق راحته . ولا يمكنه أن يأكل اللحم ثلاثة أيام في الأسبوع . وإذا تأخرت أنت عن ميعاد فتح الكبري نصف دقيقة فلا تستطيع أن تثب الى الشاطىء الثاني. ولا يقدر عبدك أن يأكل العيش إذا لم يعان السنين في الاستعداد درساً وتمريناً للحرفة التي يسترزق منها . ومع ذلك يجد في سبيل استرزاقه عقبات كثيرة من اخوانه العبيد . فهناك متمول يسابقه في الأثراء . وهناك نظام يقيده عن العمل الحر . وهناك الف عقبة وألف « عرقولة » تضيق صدره وتخمد أنفاسه . إن عبدك الانسان هذا أصبح أضيق حرية من الجندي في الجيش مهما كان ثرياً وفي سعة .

فقال الأوتو مفحماً مكابراً : ألستم أنتم مثلنا مقيدين بقيود المعيشة ؟ وهل بقيت لكم حرية .

فقال الحصان : نحن أحرار . مطالبنا محدودة كافية لمعيشتنا الهنيئة . وننتقل بين الرياض والغياض . ونحمل معنا خيامنا وأدواتنا البسيطة ، ونجتني ما جادت به الطبيعة بقليل من التعب وحياتنا مغمورة بالحرية . فابقوا أنتم مقيدين فيما تتوهمونه من البذخ والترف ، ونحن أحرار في ما نتمتع به من بساطة المعيشة في خير الطبيعة .

عند ذلك جاء صاحب الأوتوموبيل يصحبه صاحب الحصان وركب كل منهما ركوبته وانطلقا والأوتو يقول للحصان : إن كنت تدعي أن لك فضيلة عليَّ فاركض معي ، إن كنت تستطيع أن تجاريني . هلمّ .

وتجاريا والصاحبان الراكبان يتحادثان في الطريق . وبعد مسافة طويلة قفز الأوتوموبيل الى حفرة كانت مجهولة فانقلب الى الترعة الصغيرة بعد ان وثب الراكب منه . وأصبح ظهراً تحت بطن . والترعة قليلة الماء بعرض بضعة أذرع .

وأما الحصان فلما رأى الأوتوموبيل ينقلب في الترعة وثب فوق الترعة وثبة صيرته الى الجنب الثاني وقال للأوتو : هل رأيت اني أجاريك وأنك لا تستطيع أن تثب . وثبتَ فوقعتَ في الترعة وأنا سليم .

وربط الرجلان السيارة بالحصان وانتهراه ، فشد السيارة فانقلبت على بطنها وجرها الحصان الى الطريق .

وحينئذٍ قال الحصان للأوتوموبيل : أرأيت أنك وقعت وأنا رفعتك . فاذا وقعت أنا فلا تستطيع أن ترفعني . مهما تفننتم أيها الحضريون فلا تستغنون عن البدو . البدو أكثر حرية منكم ، وأقرب للسلامة ، وأقل تعرضاً للهلاك .

* * *

عودوا الى عصر البداوة أيها المتحضرون المجددون تسلموا وتعيشوا أحراراً .

مدهشات
الجراحة الحديثة

تبديل القلوب والكلى

هل أغرب على السمع وأدعى الى الدهشة من قولهم ان قلب فلان قد تعطل من حؤول أو ضمور فأبدلهُ الجراح بقلبٍ سليم ، أو أصاب كليته التهاب حتى عجزت عن تأدية وظيفتها فأبدلها بغيرها كما يُستبدَل زنبلك الساعة اذا تعطل ؟ إنها أمنية يتمناها الناس من قبيل تمني المستحيل ، ويتعللون بإمكانها كما يتعللون بأضغاث الاحلام . على أن بعض الأطباء يشتغل بتجارب يرجو أن يتوصل بها الى هذه الغاية أو ما يقرب منها . وقد نشرت مجلة مكلور الانكليزية تجارب من هذا القبيل . وهذه خلاصتها :

اهتم الدكتور كارل منذ كان طالباً في جامعة ليون باستخدام أعضاء الحيوانات السليمة للتعويض بها عن أعضاء عليلة في الانسان ، وكان يرى ذلك ممكناً ، فجاء سنة ١٩٠٥ الى الولايات المتحدة بأميركا ، وعين في جامعة شيكاغو ، وأُلحق في السنة التالية بمعمل روكفلر ، فأخذ يشتغل باخراج فكرهُ المشار إليه الى حيز العمل . فاستنبط في خياطة الشرايين والأوردة طريقة جديدة بإبرة رفيعة وخيوط حريرية دقيقة وبرع فيها حتى توصل الى قطع الأورطي أي الشريان الأكبر على مسافة قريبة من القلب وخياطته بدقة بحيث يعود الى أصله . وقد جرب طريقته هذه في الحيوانات فأتى بالغرائب بنقل الأعضاء أو بعض أجزائها من حيوان الى آخر .

فنقل اورطي كلب وخاطه بأورطي كلب آخر ، وقطع أجزاء من جدران أورطي في القطط والكلاب وخاطها في غير أمكنتها بسهولة تحت البنج الثقيل ، فكان يبنج الكلب تبنيجاً تامّاً ويجري فيه ما يريده من قطع وخياطة والكلب لا يشعر بألمٍ ما في أثناء العملية ولا بعدها ، والجروح تلتئم بسرعة ولا يحدث نزف أو التهاب ، فلا يلبث الكلب أو الهر أن يفيق من البنج حتى يعدو ولا يدري أن دمه يجري في وعاء ليس له . وكان عند الدكتور كارل هرّة صحيحة الجسم وشريانها السباتي منقول إليها من كلب له في منزله ونقل قطعة شريان من ركبة أحد الناس وخاطها في أورطي كلبه ، ونقل بعض معاونيه قطعاً من شرايين الارانب والقطط الى الكلاب .

وقد اتصل بتجاربه المذكورة الى استخدام الأوردة في ترقيع الشرايين ، لأن الشرايين إذا تعطل أحدها وأُريد ابداله بشريان آخر لا يتأتى ذلك، اذ لا يمكن الاستغناء عن شيء منها بدون خطر على الحياة — بخلاف الأوردة فان منهـا جانباً كبيراً يمكن الاستغناء عنه بسهولة ، فيرقع به ما تعطل من الشرايين ، وترقيع الشرايين على هـذه الصورة ، يرى الدكتور كارل ، انها تعيد الحياة الى الميت . قال صاحب المقالة :

« يعترف الكثيرون منا أن القلوب والكلى يمكن اعادة الحياة إليها بحيث ترجع الى عملها بعـد ان تكون قد توقفت ومات أصحابها . فاذا استطعنا نقلها وغرسها حالاً في جسم حي يمكن رجوعها الى عملها ، وهـذه حقيقة طبية ثابتة . فقد استخرجوا قلباً بعد موت صاحبه بثلاثين ساعة وأعادوا إليه عملهُ ، أي الانقباض والانبساط ، ونقل الدكتور كارل قلب أحد الكلاب ووضعهُ في قلب كلب آخر ، ووصل بين أورطى الكلب المنقول والشريان السباتي من هذا الكلب بالخياطة الرفيعة . وكذلك بين الوريد الأجوف والوريد الوداجي فأصبح الكلب وله قلبان يشتغلان معاً أحدهما ينبض ٨٨ نبضة في الدقيقة ، والآخر مئة.

وعند الدكتور صندوق التبريد يختزن فيه قطعاً من الشرايين والأوردة لاستخدامها في الترقيع عند الحاجة ، وقد استخدم بعضها لهذه الغاية بعـد حفظها ثلاثين يوماً في الصندوق فأتت بالغرض المطلوب كأنهـا قطعت بالامس ، كأن الطبيعة تترك بذلك فترة للانسان يفرق فيها بين موت الشخص وموت أعضائه، إذ قد يموت الإنسان وأكثر أعضائه سليمة . كأن يموت من علة في القلب مثلاً وتكون كبده وكليتاه سليمة . أو يموت بعلة في الكبد وقلبه سليم . فاذا نُزعت الأعضاء السليمة ساعة الموت يمكن حفظها في الجليد مدة طويلة لحين الحاجة ، وقد تظهر القلوب بعد موت أصحابها ذابلة جافة ، ولـكنها حالما توصل بالحيوان الحي تعود الى الحياة وبقايا صاحبها الأول صارت تراباً .. »

ويرى الدكتور كارل ان دفن الميت برمته اسراف ، والأولى في اعتباره أن تحوّل المدافن الى مخازن مجلدة تحفظ فيهـا الأعضاء سليمة بعد موت أصحابها . وقد أخذ في الانتفاع من تجاربه فعلاً فشفى بعض فقراء الدم من الأنيميا الخبيثـة بنقل الدم الى أحد شرايينهم من شريان بعض الأصحاء ، ويتوقع أن يشفي الأنوروزما Anévrysme (توسع يصيب الأوعية : شرايين وأوردة) بإبدال الشرايين المهترئة فيها بشرايين سليمة .

ولا يزال الدكتور المشار إليه يشتغل بهذه التجارب النافعة في معمل روكفلر ومعه المعاونون التلامذة ، وأكثر تجاربه على الأرانب والقطط والكلاب ، ولا يشعر حيوان منها بأذى لأنه يجري التجارب عليها بعـد التبنيج ، وإذا مات أحدها فيموت مبنجاً فلا يشعر بالألم ويذهب ضحية الخدمة للإنسانية .

الدكتور عبده رزق

ذكرى خليل مطران

بمناسبة ذكرى وفاته فى أول يوليو من السنة الماضية

قم بعدنان وردِّد : ههنا   مأتم الفصحى ومنعاةُ البيان
ههنا مثوى إمام كان في   دولة المنظوم ربَّ الصولجان
شقَّت العُرْبُ عليه جيبَها   وعليه اليوم ناحَ المشرقانِ
جزِع النيلُ عليه وبكى   ورثاهُ بَرَدَى والرافدانِ
مُلْهَمٌ يستنزل الوحيَ ويستودعُ الألفاظَ أسرارَ المعاني
ويحارُ الفكر في آياته   أشذورٌ هيَ أم عِقدُ جُمانِ
معدِمٌ الاّ من الأخلاق والـ   ـمالُ عَرَضٌ زائلٌ شِبهُ الدُّخانِ
ثروة الأخلاقِ أبقى والغنى   ليس بالديباجِ أو بالارجوانِ
قد يغُرُّ المالُ قوماً طمِعوا   وارتضوا في جمعه كلَّ هوانِ
فاذا الرمس دعاهم أُدرِجوا   فيه بالأكفان لا بالطيلُسانِ

⁂

مات من لو سألوا عن ناثرٍ   أنزلَتْهُ الضاد في أسمى مكانِ

وإذا ما سألوا عن شاعرٍ   أومأ العُربُ إليه بالبنانِ
خُلُقٌ سمحٌ وذكرٌ عطِرٌ   في سدادٍ ووفاءٍ واتزانِ
وخيالٌ يتحدّى حُجُبَ الـ   ـغيب يسري طارحاً طلقَ العِنانِ
شادَ للفصحى بناءً شامخاً   خَفَقَت رايتهُ فوقَ العَنانِ
واستقرّت بيعةُ الشعر له   وروى الحكمةَ عنه الثقلانِ
من ضفاف النيل في مصرٍ له   جِلّقِ الفيحا الى وادي عُمانِ
كلما أنشدَ شعراً خِلتَهُ   سجعةَ الورْقِ وشدْوَ الكروانِ
دررٌ تبقى على الدهر وقد   يخلُدُ الذكرُ ويفنى الملَوانِ
خلَعَ المجدُ عليها ثوبهُ   واستمدَّ الخُلدَ منها الفرقدانِ
بين نجواه ومجلى وحيه   تسجعُ الطيرُ وتهتزُّ المثاني
يسمعُ السامرُ منهُ طُرُفاً   من فنون الشعر والآي الحسانِ
طُرُفاً تبْعثُ فيه نَشوةً   ربَّ صاحٍ ثمِلٍ ثبتِ الجَنانِ
ليس يدري ما الذي يُسكِره   نفثةُ الشيطانِ أم بنتُ الدنانِ

* * *

تعصفُ الأحداثُ بالمرء وكم   تهدمُ الأيامُ ما يبنيه بانِ
قد سقاني الدهرُ من أكؤسه   ويحَ هذا الدهر مما قد سقاني
إنما الانسانُ ظلٌّ زائلٌ   وخيالٌ قدَّ من فيءِ الدخانِ
لا يغرّنك يومٌ ضاحكٌ   طيّبات العيش لا تعدو الثواني
أيها المغرقُ في آماله   ليس للعاقل الاّ الأصغرانِ
ليس للعاقلِ في الدنيا سوى   جَسَدٍ فانٍ وذكرٍ غير فانِ

* * *

ما عسى الأيامُ أن تفعل بي   أنا والأيامُ في حربٍ عوانِ
لستُ أخشى الدهرَ لكني لدى   فرقةِ الأحباب ذو قلبٍ جبانِ

أنا أبكي من مضى من رِفقتي   لست أبكي ما تولّى من زماني
أسكت الموت خليلاً فاذا   صمْتُهُ أبلغُ من كل بيانِ
حكم الداء عليه فقضى   ربّ محكومٍ عليه غير جانِ
أيها النازحُ عن أحبابه   موعدُ الشملِ بدار الخلْدِ دانِ
كل أحبابك خلٌّ مخلصُ الـ   ـودّ لا يثنيه عن ذكرك ثانِ
هلْ لقيتَ الصحْبَ ممن سبقوا الـ   ـركب يستجلون أسرار الكيانِ
وهل استقصيتَ أنباءَ هوجو   وشكسبير ودنتي وابن هاني
وهل الرفقةُ كالعهد بهم   أم قد استهوتهمُ حور الجنانِ
مهرجانُ الشعر ولّى وانقضى   يا رعى الله ليالي المهرجانِ

***

أخفق الآسي وأعيا طبُّهُ   فنعاهُ وهو معقودُ اللسانِ
ما عسى أن يفعل الآسي اذا   خانهُ الداءُ وخانتهُ الأماني
هذه الدارُ سرابٌ خادعٌ   ولكمْ نحملُ منها ونعاني
لا تهنئْ من يقيمون بها   الألى يمضون أحرى بالتهاني
إنما أخيارنا أسبقنا   ولعمري كلنا خيلُ رِهانِ
مقبلٌ آتٍ وغادٍ رائحٌ   ونزيلٌ مسرعٌ أو متوانِ
مكثرُ الآهاتِ باكٍ نائحٌ   وا كفُ المدمع بادي الخفقانِ

***

ما عسى ترجون أن أُسمعكم   والأسى قد نالَ مني وبراني
مِزهرٌ مقطوعةٌ أوتارهُ   وربابٌ زَهدَتْ فيه اليدانِ
صادحاتُ الروضِ ما أسكتها   وأنا علّمتُها نظمَ الأغاني
ومغاني الأنسِ ماذا انتابها   نخلَتْ ؟ لهفي على تلك المغاني
طويتْ أيامها واستُبْدِلَتْ   بدموع الغيد أعوادُ القيانِ
ربّ أمسٍ كنت ترجو غدَهُ   بت ترجو عوده في كل آنِ
انها الدنيا نعيمٌ وشقا   ليس للإنسان فيها من أمانِ

سليم عبد الاحمر

الفكاك

عُمُرٌ ينقضي برُشْدٍ وغيٍّ   وحياةٌ تشرّبتْ كلَّ حيّ !
يا أخيّ ! أنت بعض نفسي ، فرفقاً !   لا تحاول إرهاقَ قلبي الأبيّ
أو تلُمني على وفائيَ للحقِّ   وذَوْدي عن الغبين الشقيّ
ذا كياني ، وذا شعوري ، فما لي   حيلةٌ في شعور قلبي الوفيّ
لم أكن مَنْ يغادر (النيلَ) لولا   هُ طريداً ، وإنْ أكنْ كالنبيّ
باكياً عِزةَ (الكنانة) هانتْ   وتوارتْ كفنها العبقريّ
آسياً ، عانياً ، وقد حرّمَ الخلْـ   ـقُ عليه السلامَ في كلّ شيّ
ألجموهُ ، وقيّدوه ، وراحوا   يُعلنون الفكاكَ أفظعَ غيّ !
رُبما كان لأمي مَنْ افديـ   ـهِ بروحي ، كما أفدّي نبيّي
مَن تغرّبتُ كي أُدوّي بما يَرْ   جُو ، وقاسيتُ في كفاحي العتيّ
ترجماناً له ، وحيناً دليلا   وحميماً في بؤسهِ الأزليّ
أقبلُ الرّجمَ راضياً وهو يشكو   ني ، كأني غريمُ شعبٍ غبيّ !
فاتهُ لاهياً جُهودي وآلامي   دفاعاً عن حقهِ المنسيّ
وغدا ساندا نِكايةَ حُسادي   وباغٍ بدا بثوبِ الوليّ
إنّ طعنَ الحميم أقسى وأنكى   من شماتِ المضلّلِ الجاهليّ
وجُحود الذي تخُصُّ به الحُبّ   لأمضى من كل داءٍ عَيِيّ ! (١)

* * *

سنواتٌ خمسٌ تكادُ بها نمْـ   ـضي أمانيَ المعذّبِ المَنفيّ
إنْ أكنْ قد ظفرتُ في جوّيَ الطلْـ   ـقِ بعُمْرٍ مجدّدٍ ألمعيّ
ففؤادي ما زال يبكي على قوْ   مي ، كحالِ اليهودِ و (المبكيّ) (٢)
ليتنا مثلهم ، وقد أصبحوا السّا   دةَ في الدار والغِنى السّرمديّ
حينما نحن يَرْشُقُ الحرُّ منا   نِدّه ، عابثاً بكل فريّ
إنّ هدْمَ (الاهرامِ) أهونُ عُقبى   من زوال التضامُنِ الوطنيّ !

أحمد زكي أبو شادي

---

(١) داء عيي : داء مكتوم لا يعلن عن نفسه كالسرطان الخفي
(٢) ملكهم القديم الذين ينوحون عليه عند حائط المبكى (بفتح الكاف) في بيت المقدس

نظرات في النفس والحياة

-٢٤-

نظرات ثاكوي

(١٢) ان ألفاظ السباب اذا صارت سنة جارية في البيئة وتعوّدها الانسان وكانت أمراً مألوفاً ، فكل إنسان يشتم غيره ويقبل الشتم من غيره، فيصير تبادل المزاح بأشد أنواع السباب والشتم في مثل هـذه البيئة نوعاً من السماحة والكرم الحاتمي ودليلاً على الألفة والمودّة — ولكن من الغريب ان المشيرين في هـذه البيئة قد يتبادلان السباب وأشد أنواع الشتم بالبشاشة والسماحة في مجلس وفي مجلس آخر قد تؤدي الكلمة الهينة أو الكبيرة من السباب الى اراقة الدماء والقتل .

(١٣) ليس من السهل أن نعرف الحد الذي عنـده ينتهي باعث احترام المرء نفسه بإخفاء حقيقـة حاله وتجمّله صوناً للناس عن الاطلاع على حاجته وسوء حاله، وهو الحد الذي يبتدىء عنده النفاق المرذول، فكم من أناس ينفقون في المظاهر ويبذلون للكماليات ما هو أحق بالانفاق على الضروريات — ويرون سعادتهم في هذه الخطة كي يستطيعوا الزهو والكبرياء ، وتعيير من لا يستطيع الانفاق في سبيل الكماليات، وليحسب الناس أنهم انما ينفقون في الكماليات عن سعة في الرزق، وكي يستطيعوا احتقار غيرهم ممن ضاقت به الحال أو ممن كان أعقل من أن يلتزم هذه الخطة في الانفاق على الكماليات وهو محتاج الى الضروريات والناس أولى بأن يعطف كل على أخيه بدل الزّهو والمباهاة المؤسسة على الباطل .

(١٤) ان نصف آلام المحب اذا زهد فيه من يحبه وجفاه ناشيء من الغرور والعُجْب بالنفس ، لا من الرقة والحنان وطيب القلب . ولكنه يخلط بين أثَرَته وطيب قلبه وحنانه. وقد يفعل ذلك مخدوعاً بإحساسه وهو لا يدري كما يُخدَع به القصصيون الذين يصفون أمثال هذا العاشق المهجور فيكون في انخداعهم وخداعهم للقارىء شيء من السماجة اذا فطن القارىء .

(١٥) بعض الناس قد تغيظهم سعادة أصدقائهم إذا طالع هؤلاء طالع يُمن . ولكنهم

بالرغم من ذلك اذا أصاب صديق سوء وحلّت به كارثة يعطفون عليه ويظهرون الاشفاق عليه من شقائه الذي حلّ به بعد ان كانوا يحسدونه على سعادته ونجاحه . فالنفس الإنسانية قد تجمع بين مرارة الحسد وحلاوة العطف ، وبين أحقاد المنافسة والمشاركة في الحزن والمصاب . فإن احقاد المنافسة قد تختفي في نفس المرء عند ما يعثر الحظ بمنافسيه، فيظهر له كرم المشاركة في الحزن (امّا خالصاً واما ممزوجاً بشيء خفي من التّشفّي والارتياح) فرأفة الشهامة وخسة الدناءة قد تجتمع في النفس الواحدة وقد تمتزج فيها .

(١٦) قد تعارف أكثر الناس على أن لكل منهم الحق في أن يغتاب صديقه ثمّ يتصافحان ويتعاشران ويتزاملان بطلاقة وابتسام وإظهار للود اذا اجتمعا -- (وقد يسمع كل منهما بأذنه حتى ساعة اللقاء أو قُبيلَه شتم الآخر له ، فيدعي انه لم يسمع — ومن يحاول من الناس حملهم على تغيير هذا الطبع يلاقي مقتاً وعداءً كأنه يريد أن يحرمهم من حق لهم مقرّر مفروض معروف ، ألاَ وهو حقهم في اغتياب معاشرهم وزميلهم. وكأنهم يخشون إذا تنازلوا عن حقهم طوعاً أن لا يتنازل غيرهم فتلحقهم الخسارة، ويحل بهم الغبن، وينقلبون بالغيظ على من يريد حملهم وحضهم على التنازل عن حقهم المقرر المفروض في اغتياب معاشريهم وزملائهم ويعدونه ظالماً لهم أو قليل الإنصاف .

(١٧) ان المرء قد يزول حبه أو تفنى مودته لانسان، فلا يرى في زوال حبه، وفناء مودته، خيانة منه لذلك الانسان ولا غدراً به ، ولا نقصاً في نفسه . أما اذا زالت مودة انسان له فانه يدهشه زوالها ويعد ذلك الزوال غدراً ونقيصة وخيانة، حتى انه قد ييأس من صلاح الناس والحياة وقد يبخع نفسه بالحزن والضيق مع انه كان لا يرى في تغيره للناس مضايقة لهم ويتألم وكان لا يرى في تبدّله للناس أبدالاً ألماً لهم ، ولا يفطن الى أن ذلك الخلق منه من الأثرَة وحب الذات الذي يبيح لنفسه ما لا يبيح للناس ، وينعي ويعيب على الناس ما لا ينعَى ولا يعيب على نفسه .

(١٨) كثيراً ما نخطىء فنظن أن عهدي الطفولة والصبا هما عهدا البراءة والطهارة والخلو من الكذب والخداع . وعندي أن كثيراً من الكبار لا يتقنون خداع الناس وتكلف غير الحقيقة لهم كما يتقنه الصغار . وهؤلاء الصغار يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس بأمور ينبغي أن لا تجوز عند أحد أو تنطلي أو تختفي أو تُلْتَبَس . وكلما كبر الانسان تعلّم كيف يقدّر الحق ، وكيف يميل الى البساطة الاّ إذا ظلّ المرء أشبه بالطفل في كبره ، وكم من كذبة من صغير السّن أجّجت نار عداء بين الكبار ، والكبار

ينسون ما كانوا عليه في صغرهم من استساغة الكذب وسهولته لديهم ، ولا يصدقون ان صغيرهم الطاهر البريء كاذب، فيقبلون قوله على علاته، ويمعنون في المداه بسببه. ولعلّ عجز الصغار امام إلحاح رغباتهم أو خيالهم أو أهوائهم وقلة خبرتهم بأمور الحياة أمور تدعوهم الى عدم المبالاة اذا اعتزموا الكذب وتهيء لهم وسائل استثمار ثقة الكبار بهم. وأمثال هذه الأمور هي التي تحملهم على سلوك ما ينافي سذاجة الصغر وما يجافي طهارته — ثمّ هم اذا فوجئوا في هذا المسلك أنكروا سلوكه بدهشة وحِدّةٍ. وهذه الدهشة وهذه الحدّة يشتبه فيها البريء وغير البريء .

(١٩) مما يزيد المرء اعتقاداً في عظمته ، ويسهّله لديه ويمكنه منه خضوع من حوله وتملقهم إياه فيلبس لباس العظمة التي يلبسه إياه من حوله، وهم اذا أقنعوه بعظمته لنيل مأرب من جاهه أو مرتبته أو ماله أقنع نفسه وأقنعوا هم أنفسهم بعظمته على الأقل الى أن ينالوا ما يريدون ، والرجل المتواضع الذي لا يرى في نفسه عظمة إذا عُرض لهذا التأثير فانه قد ينتهي بأن يظن في نفسه العظمة. والمشاهدون لأمثال هذه المحاولات ينتهي بهم الحال الى الاقتناع بعظمة هذا الإنسان من طريق العدوى أو الطمع الأشعبي في خير يصلهم عن طريق هذه العظمة التي يؤصصونها لغيرهم. ولولا هذا الانخداع الأشعبي ما اشترك أكثر الناس في الاعتراف بعظمة إنسان أو تأسيس بنيانها .

(٢٠) من الغريب أن اثنين من الناس قد يشعران بميل كل الى الآخر أو بنفور كل من الآخر من غير سبب ظاهر وجيه معروف، وكما أن بعض الناس قد ينفر من رائحة يحبها غيره أو يتأذى ويمرض من طعام يصح به غيره. فكذلك قد ينفر إنسان من مودة انسان آخر ويصيبه مرض اذا ذاق مودة هذا الإنسان ، بينما يذوق غيره تلك المودّة ويستطيبها فيلتهمها التهاماً ويصح على ذلك . ولا تدري سبباً ظاهراً معروفاً لهذا الأمر .

(٢١) كما أن عبّاد الشيطان يعبدونه، ولكنهم يحرمون ذكر اسمه. كذلك بعض الناس يتصفون بصفات السوء، فيطلونها بطلاء يخفيها ، ويرون انه ليس من الكياسة واللباقة ، والآداب وصف أخلاقهم، حتى ولو كان وصفاً عامّاً ، ولكنه كالحز في المفصل . ويعدون ذلك من كره الواصف للانسانية المعذبة ومن قلة الرحمة بالناس، وهم يأبون هذا الوصف إذا خشوا أن يلحظ الناس فيه تعريضاً بسيئاتهم ... أما إذا كانوا يريدون الأذى لانسان زال تحريم ما كانوا يحرمونه من وصف السيئات ولا يفطنون الى أن هذا أيضاً تعريض بسيئات نفوسهم .

(٢٢) ان حكمة الله الخفية قد تقضي أن يقهر أهل الخير والفهم، وأن يذلهم وأن يرفع أهل الأثرة والحماقة والشر، ومن أجل ذلك ينبغي أن يتواضع صاحب النجاح والسعادة، وان يخشع أمام ارادة الله وقسمة الحظوظ التي تقضي بذلك وأن لا يغتر بنصيبه من الحياة فانه أشبه بما يسمى (اليانصيب)، فالحياة كثيراً ما تكون كالاقتراع هذا ينال الدمقس والحرير والقصور المشيدة، وذاك نصيبه الخرق البالية، ومعاشرة الكلاب الضالة . ولكن الانسان قلما يؤمن بذلك، بل يرى أن كل انسان نال ما يستحقه من الطيبات، فمن حرم منها كان حرمانه دليلاً على نقص وعيب، ومن لم يحرم منها بل كان نصيبه من طيبات الدنيا جزيلاً دلت جزالة نصيبه على خلوه من النقص والعيب . ولقد رأيت من مظاهر النجاح وعرفت من أسبابه ما زهدني في الهتاف للناجحين ومن السير في ركابهم . وسواء أرأيت محافظ المدينة ذاهباً الى وليمة في قصر المحافظة أم رأيت سجيناً يقاد الى المشنقة فاني لا أغترّ بظواهر الأمور، بل أنظر في نفسي، وأنظر في نفوس الناس، فأرى أن محافظ المدينة ليس أعظم مني نفساً، ولست أعظم نفساً من الآثم الذي يسار به الى الهلاك، وان الأول لو رُبّي كما رُبّي الثاني لكان مثله .

(٢٣) يقول بعض المتكالبين على النجاح : (النزاهة أحسن وسيلة للنجاح) ولو اطمأن الرجل غير النزيه الى أن قلة النزاهة أحسن وسيلة للنجاح لما تردد في أن يكون غير نزيه، وبعضهم يرددها وهو غير آخذٍ بسنة النزاهة كي يظن من يعامله أنه أخذ بها، ولعله يرددها كي يأخذ الناس بها، فيربح من نزاهتهم ثم يحرمهم الربح من نزاهته.

(٢٤) ما أعجب رشاقة المرأة إذ تنافق وترائي، وما أحب وألطف خفتها ولباقتها إذ تُدَاهِن وتداجي من غير تَعَثُّر أو ارتباك — : ذلك لأن الضعيف المغلوب على أمره يحاول أن يتقن هذه الصفات، وأن يكسبها جمالاً ومحبة . وقد مرت المرأة في عصور طويلة كانت فيها في حاجة الى أن تتعلم رشاقة الرياء وجمال المداهنة

(٢٥) قد يستسيغ المرء الناس وعشرتهم على مضض وألم، وهو يحاول اخفاء ذلك كمن يشرب الدواء المُرَّ للضرورة في هدوء واستسلام. ولكن تقلص وجهه يدل على ما يعاني من مضض، وإن أنكر ذلك، وقد يستعين بقطعة من السُّكر ليزيل به مرارة الدواء كما يستعين الأول بما هو شبيه بقطعة السكر كي يزيل مضاضة عشرة الناس من نفسه .

ع . ش

تقدم الطب

لعهد جلالة الملك فاروق

الفيتامينات

لقد عُرفت الفيتامينات وازدهرت وبُحِثت علميًّا في عهد ولاية فاروقنا المحبوب لكنها كانت معروفة معرفة غامضة من عهد الأغريق في أيام بركلس. وعند ما اكتشف بردي ابنيستن الشهير ظهر فيه تلميح بعيد عن وجودها. وذكروا قديماً « وجوب التغذية المختارة المنقاة » وكانوا يظنون قديماً « أنه يوجد بالجسم اجزاء تساعد على توازن الجسم ونشاطه » ثم عادوا الى الحيوانات الداجنة وعَمِلوا تجارب عديدة بالفيران والفراخ وقد جوّعوها أو حرَمُوها من بعض مواد غذائية ليشاهدوا الاضطرابات التي تظهر عندها على أثر هذه التجارب. وفُونك هو أول من ذكر عام ١٩١١م ضرورة وجود أجزاء بالتغذية متممة ومعوضة، وقال « ان اللبن يحتوي عوض عن الكازين والمواد الدهنية والسكر والملح أجزاء أخرى لاغنى عنها » . وزاد على ذلك « أن واجبنا أن نبحث في اللبن والبيض عن حقيقة هذه الأجزاء »

وروشتين هو أول من اكتشف الفيتامين C ك ت عام ١٩٣٥ وكاد الفيتامين ٢ C ك ت اللاكتوفلافين أو الاريوفلافين، وبعد ثلاث سنوات الفيتامين E توكوميزول .

ولنذكر هنا باختصار أسماء العلماء الذين ساهموا بهذه الابحاث : هُبكنس وفَنك الذي أشار الى بعض الأمراض الناتجة عن نقص بعض أجزاء بالتغذية. وجاء بعده ماك كُوريم وجريني وشيدل وبُلم وهُبكنَتش ومالذِل وأُسبورن وزُنهيم ولنسير وبُوردلليون الخ

وكل واحد من هؤلاء وضع حجراً أساسيًّا في درس هذه الفيتامينات المختلفة. ومن المؤكد أن الفيتامينات مثل المواد المخَمِّرة والهرمونات تُساعد على نشاط الجسم وحيوته

وبدونها كان رجال البحر والجيوش البرية والشعوب تُصاب باضطرابات وعِلَل جاء ذكرها بالتاريخ العابر بدون معرفة أسبابها . وقد زالت الآن تقريباً ولنذكر أهم هذه الفيتامينات بايجاز

الفيتامين A « الف » : — عمله الفسيولوجي انه يقوي نمو الغشاء المخاطي ويقاوم الأمراض التعفنية ويساعد البصر لاحتمال الظلام ويُعطى في الأمراض الجلدية عند نشوئها وقساوة الجلد وفي اضطرابات الأغشية المخاطية

الفيتامين ب^1 B_1: — يُساعد هضم المواد السكرية ويُنظّم حركة الأعصاب والعضلات. وهو مُسكن ومقوٍّ للجهاز العصبي ، ويساعد في بعض اضطرابات تغذية « متابولبستيم » المواد السكرية والماء .

ونقصه بالجسم يُعرّض لأوجاع الرأس وهبوط القوى واحساس زائد بالجلد وقلق وورم بالجفون ونزف داخل العين مع قلة شاهية وامساك ، ويبطىء بحركة العضلات و « نهجة » عند أقل مجهود وخفقان وتمدد بالقلب إذا قاوم فعل الديجتال وفي الأوجاع العصبية بالأرجل

الفيتامين B^2 ب^٢: — أملاح مبلورة نخلية مصفرة تحل قليلاً بالماء وأقل منها بالكحول. تقاوم فعل الهواء خصوصاً عند التفاعل القلوي وتمتزج بالحامض الفسفوريك ويدخل في الحمض الأميني وغيره من الحوامض الأمينية . وبمزجه مواد تخمرية يساعد على هضم وتحويل المواد السكرية ويحول الحوامض الأمينية والسكر الى مواد دهنية. وله تأثير خاص في حدة البصر ، ويكثر إفراز البول والتحويل الملحي عن طريق الكلى . وهو فوق ذلك يعطى للفراخ لتكثير البيض . والامتناع عن أخذه يعرض للاضطراب في العيون وفي الغشاء المخاطي والجلد وارتباك في هضم المواد الدهنية ويسبب تيبُّس مع قشور في زوايا سقف الحلق واحمرار بالحنجرة وصعوبة بالتبلع ولُطَع حمراء في الجلد وانتفاخ خفيف في غدد الأنف والغدد الجلدية

ويفيد عند توقف نمو الجسم وهبوط القوى وفي حالات في المعدة والامعاء وسوء هضم المواد الدهنية والتهاب الجفون وتقرُّح في حدقة العين .

وبعده يجيء النيكوتيلاميد وهذا فيتامين لم يتركز لحد الآن . وهوَ ملح مُبلور لا

لون لَـهُ، مرٌّ المذاق مالِح يُحلٌ بسهولة بالماء ويوجد بكثرة بالقمح والشعير والفاكهة والخضرة

يَدخُل في جملة مواد تخميرية، ويساعد على هضم المواد السكرية والحوامض الدهنية في النبات والحيوان . والحامض النيكوتيك يُسَاعد نمو بعض الميكروبات كمكروب الدفتيريا والدسنتيريا والستافيلوكوك المذهَّب والحمض المككتيك اللبني .

ونقصَهُ في الجسم يعرض لمرض البلاجريا عند الانسان والحيوان ويُحدث تهيج في غشاء الحنجرة والفم وورم واحمرار باللسان وقلة قابلية للطعام وقيء وإسهال واضطراب كبدي، ويعرض لقروح وقشور بالجلد خصوصاً في الأيدي والأرجل والوجه وتهيج عصبي وضُعف بالذاكرة وأحياناً هذيان هذا عند الانسان عدا الحيوان

الفيتامين B^{6} ب^{٦} : ـ « الأدرمين » وهو مَلح مبلور طعمه مالح يحل بسهولة بالماء . يساعد انتظام خلايا الكبد والأعصاب والجلد ويزيد في نمو بعض الميكروبات، ويساعد كثيراً على شفاء البلجريا يستعمل في الأمراض العصبية والمفصلية وفي الشَلل وفي الرجفان الباركسوني وأورام الدماغ وفي ضعف العضلات

الفيتامين ش^{١} H : — يوجد بكثرة بالخميرة وردَّة الرُز والمِيلاَسَ . وهو يوجد في الكبد والكلى والمخ وسائل اللبن وصفار البيض

يساعد نمو الأنسجة الفطرية وتحويل المواد الدهنية بالكبد، ونقصه بالجسم يسبب أوزيما جلدية خفيفة مع افراز دهني وقشور بالجلد خصوصاً بالأطراف، وينفع الحيوانات ، وقلته تساعد سقوط الشعر وأعراض جلدية

الفيتامين BC ب ث : — الحمض الفوليت وفيتامين م

يوجد بالكبد والكلى وعضلات البقر والعُجول وفي اللبن والجبن ، وبكثرة بالسبانخ يقاوم فقر الدم الخبيث وفقر الدم الناتج من مرض السنبرو والبلاجريا وفقر الدم عند الحبالى، أو الناتج عن قلة التغذية .

الفيتامين ث C : — يستعمل بكثرة زائدة ضد مرض الاسكربوت والنزف الدموي والتهاب اللثة. ونقصه بالجسم يسبب هبوط القوى وضعف الأسنان وضعف مقاومة الجسم للأمراض

الحادة خصوصاً وتزداد حاجة الجسم اليه عند الحبالى والرُّضَّع وفي الشيخوخة وفي أثناء الأمراض الحادة خصوصاً الأمراض الصدرية

الفيتامين د D : — يوجد بالكبد وزيوت أسماك البحار ويوجد في سمك الانشُوكة والسردين ولبن البقر وصفار البيض وهو يساعد امتصاص وتركيز الكلسيوم بالجسم والحمض الفسفوريك، ويركز الكلسيوم بالعظام ويوازن بين كلسيوم الجسم وفوسفات الدم.

وأخذه يساعد تركيز الكلسيوم بالعظام خصوصاً بأطراف العظام الطويلة وضروري في الكساح وأمراض العظام .

ونقصه بالجسم يعرض للخوف والكدر والبكا عند الأطفال وتأخير تغطية نافوخ الرأس بالغلاف العظمي ويؤخر ظهور الأسنان وعدم متانتها وانتظامها . ويسبب الهزال ونقص في تركيب عظام الصدر والحوض والأطراف .

والفيتامين E : — يكثر بالقمح والشعير وفي زيت القمح وبزرة القطن والفول السوداني يساعد على نمو الغشاء المخاطي ونمو الجنين ويثبت توازن الفيتامين A الف يستعمل بالاضطراب العصبي والعضلي وضعف السمع وضعف حاسة الشم وفي مرض السكر وعند الحبالي ليمنع السقط .

الهرمونات

وهذه الهرمونات هي خلاصة افراز الغدد الصماء واستخلاص المادة الجوهرية الفعالة منها . وقد درست درساً وافياً عميقاً في العشرة السنوات الأخيرة والتي رغم ملابساتها ونجاحها لم يزل بعض الغموض يكتنفها . وافرازات هذه الغدد تساعد بدرجة قصوى توازن الجسم وانتظام وظائفه الفسيولوجية وكل غدة ترتبط بعمل عضو أو أكثر . وقد درست هذه الافرازات في حالتها الطبيعية السليمة وفي حالات اختلالها وزيادة افرازها عن الحد الطبيعي أو نقصه وكل حالة من هذه الحالات يترتب عليها نتائج كثيرة بين اضطراب وتهيج عصبي وعجز عن العمل في عضو معين أو أكثر وأعراض هضمية ونقص بالقوى العامة ومنها ما يتوقف عليه مهجة الأمومة والأنوثة وسلامة الوظائف التناسلية والقوة والنشاط

والأقدام عند الرجال . وهذه أعراض الغدة الدرقية المرتبط عملها بغدة الأليبوفيز في الدماغ ، والتي بفعلها الطبيعي ينتظم جميع احتراق الجسم واتزانه وتحولاته البيولوجية وهدوء الأعصاب وراحتها، وتيسير حركة القلب وضرباته أو اضطرابها وزيادة افرازها الذي يجلب عكس الأعراض المذكورة مع القلق والخوف والرجفان . وهذه موضوعات كبيرة بعيدة الغور عميقة الأثر يحتاج الى شرحها مجلدات . وهذه الغدة فوق الكلوية مع غلافها هي التي تثير الأبحاث الحديثة عن عجائب فعلها وأهميتها في حالتها الطبيعية التي تهيء للجسم النشاط والقوة والاتزان والشباب . وان ضعفت وذبلت وقل إفرازها أو اعتل فتجلب هبوط القوى والتعب وانحطاط الجسم والتراخي وشحوب الوجه واصفراره . وهذا مصل جونومتز الروسي الذي ذاع صيته منذ أكثر من سنة لاطالة حياة الانسان والذي دوى ذكره بالآفاق وأحيا آمال الانسان واستبشاره بطول العمر وابعاد شبح الشيخوخة وتعاستها اذا استخاص هذا المصل من افراز الغشاء الخلوي بالجسم . وجاء بعده أخيراً الكورتيزون العظيم أو الكنبولند E الذي مكث كندال الأميركي ثمانية سنوات يوالي البحث والدرس والاختبار كي يستخلص من غلاف الغدة فوق الكلوية وافرازها هذا العلاج العجيب، وبعد السنين الأخرى يجد في أملاح المرارة كمية زائدة عما وجده فيها . ولم يتركز معه هذا العلاج إلاّ عام ١٩٤٧ إذ أصبح تحضيره يحتاج إلى أقل مشقة وجهد. وهذا العلاج قد استعمل بنجاح مدهش في اصابات المفاصل الحادة والذي فعله يمتد الى كل الأمراض التي مصدرها النسيج الخلوي Tissu Coujonctif مثل الروماتيزم الحاد الخطر النتائج والنقرص والقرحة الجلدية الايرماتية وأمراض الجلد الخاصة وتيبس وتكلس الجلد سكليرودرما . والشائع أن استعماله لخلاف هذه الأمراض يطيل الحياة كثيراً ويمد في عمر الانسان ويبقي له نشاطه وقوته ورجولته ويبعد عنه شبح الشيخوخة المخيف الحاط بالتعاسة والانحطاط وتراخي الاعضاء والعضلات. وهذا ما يبعث أعظم الأمل عند الانسان الذي تهلل بشراً عند النبأ عن هذا العلاج العجيب. غير أن هذا الأمل العظيم المحبب الى النفوس يحتاج الى الوقت والتجارب والامتحان ليتحقق تحقيقاً علمياً ثابتاً إن شاء الله قريباً .

وكيف يمكننا استيفاء هذا الموضوع الجسيم عن تقدم الطب في عهد الفاروق أمد الله بحياته بدون أن نذكر باختصار الوثبات الجبارة التي قطعتها الجراحة في جراحة المخ والدماغ. هذه الجراحة الخطيرة الشاقة المضنية للجرّاح والمريض والتي ابتكرها كوشن الأميركي العظيم ومساعديه الأمجاد، والتي امتاز بها دي مرتل وكلوفيتس فنسان العبقري الذي توفي أخيراً وبتي دي تيللي الأفرنسيين. وجراحة القلب والشرايين وجراحة الأورطي الجريئة بالذبحة الصدرية التي لحسن الحظ خرجت من المهد، وجراحة الأعصاب والغدد العصبية الجامعة ، وجراحة العصب السنباتيكي كي يساعد الشرايين على الغدد كي لا يحرم جزء من الجسم، خصوصاً الأطراف، من الدم الوافي لتغذيته بسبب انكماش الشرايين . وقد خطت الجراحة خطوات عظيمة بجراحة المعدة واستئصال نصفها أو أكثره أو أقل .وهذه عملية تحدد أصولها اليوم في الحالات التي يجب القيام بها وجراحة الصدر في السل الرئوي وغيرها وغيرها مما يصعب حصره .وقد جئنا فقط على أهم المستحدثات في هذا الباب .

وقد امتاز بعض اخواننا المصريين ببحث علاج خاص استخلصوه بعد الامتحان والتجارب المنتجة من بزر «الخلة» وهو يساعد على تمدد الشرايين، والذي نجح نجاحاً صحيحاً بمقاومة أمراض الذبحة الصدرية الخطرة ويرجع الفضل الكبير الى الدكتور محمد رجب أستاذ العقاقير في القصر العيني والدكتور كرم سمعان أستاذ المواد الطبية اللذين أوصلا هذا العلاج الى المقام الممتاز الذي اجتازه بنجاح لحد الآن والذي سيسير به بعيداً في الآتي إن شاء الله

وقد امتاز بعض الأطباء المصريين كثيراً ببحث البلهارسيا والانكلستوما .

ولنا هنا أمنية عزيزة علينا صادرة عن اخلاص ووفاء وهي أن اخواننا الأطباء والعلماء المصريين لديهم وسائط كبرى جزيلة واسعة ومختبرات مجهزة أوفى تجهيز يحسدهم عليها علماء البلاد الغنية والتي هي أفقر منا ولديهم المادة البشرية متوفرة أي توفير ، كذلك الحيوانات الداجنة التي تصلح للتجارب والبحث والاختبار ،فنرغب أن يتجرد عدد كبير منهم للبحث والاكتشاف العلمي الطبي البحت، بعيدين عن معاطاة المهنة ليباشروا أعمالاً دقيقة مبتكرة — والمجال رحب واسع أمامهم بثبات وجرأة وتجلد كي يتبوأوا المكان اللائق باكتشافاتهم القليلة لحد الآن — وبذكائهم وكفاءتهم وبعظمة بلادهم وعظمة الفاروق مليكنا المحبوب أعزه الله وأيده بروح من عنده .

الدكتور جوزيف كميل

معجزات العلوم والفنون

في النصف الماضي من القرن الحالي

١ — ﴿ تقدم العلوم ﴾ كانت الناس تظن أن القرن التاسع عشر ، لا نظير له على الاطلاق. لأنه كان حافلاً بالمخترعات التي تمت في خلاله . ولا غرو فهو العصر الذي اخترعت فيه الآلات البخارية والكهربية والتلغراف اللاسلكي « غير المتقن » والعربات الخالية من الجياد ، ثم التليفون والتلغراف .

ومن ثمة خيل لهم أنه لم يبق اختراع يستحق الاهتمام في مستقبل الأيام . أما الآن وقد انقضت خمسون سنة من القرن الحاضر ، فقد أصبح في وسعنا ، أن نصف بايجاز ما تم ظهوره من المخترعات في هذه الحقبة .

٢ — ﴿ السيارات ﴾ ومما ينبغي ذكره في تاريخ السيارات ، إن عربات بنز Benz ودايملر Daimler « الخالية من الجياد » كانت تسير في شوارع المدن الاوربية بعد سنة ١٨٨٠. وقبل ١٨٩٠ كان لدى بعض الشجعان من الأمريكيين ، وهم إلوودهاينز ، والكسندرونطون وهنري فورد ، وفئة أخرى غيرهم ، عربات تنطلق في شوارع المدن ، مقعقعة متمتمة .

ومن غريب ما يُروى في هذا الصدد أن هاينز تلقَّى في سنة ١٨٩٥ من أحد رجال بوليس مدينة شيكاغو ، انذاراً يحظر به عليه تسيير عربته الخالية من الخيول ، وذلك في شوارع المدينة. وفي نحو ذلك العهد نفسه ، ألقى القبض على رجل اسمه كورتلندفيلد بيشوب لمخالفته نظام سوق العربات ، إذ قاد سيارة في سنترال بارك في مدينة نيويورك .

٣ — ﴿ هنري فورد ﴾ وكانت المعاونة الكبرى التي أسدتها بلاد الولايات المتحدة الأمريكية ، الى حرفة النقل والانتقال الميكانيكيين على الطارق ، هي النجاح في تعجيل ضم أجزاء السيارة بعضها الى بعض . وهي الحرفة التي حذقها « هنري فورد » وذلك عن طريق كبس السلع . ثم حسنها تحسيناً كبيراً . فأتيح لرجل واحد في سنة ١٩١٢ تركيب سيارة

من طراز فورد في مدة ١٤ ساعة عمل، وذلك من أجزائها المختلفة . وكانت نفقات تركيبها ثمانية دولارات و ٧٥ سنتاً . وبعد مضي عامين انخفض متوسط الزمن الذي يقضيه الصانع في التركيب نفسه ، فصار ساعتين . وهبطت المصروفات الى دولار واحد وربع دولار .

وكان خرّاط المعادن الذي اخترع لفورد تلك القاعدة ، عامل من أهل أوهيو اسمه وُلتر فلندرز Walter Flanders فأضحى خرط قالب الاسطوانة بأجمعه ، وتوسيع ثقوبه من الداخل ، ثم تخريم ثقوب المسامير « المقلوظة » وسنفرة قواعد الصمامات ، وكشط القاعدة والرأس ، ومجموعها ٢٨ عملية ، تستغرق ٤٥ دقيقة فقط . فأحدثت هذه القاعدة انقلاباً في انتاج السيارات ، مما يسّر لكل امرىء من خمسة أشخاص أمريكيين اقتناء سيارة .

٤ — ﴿ تاريخ اختراع الطائرات ﴾ ومما لاريب فيه ، ان الشيء الوحيد الذي أدهش العالم في العقد الأول من القرن الحالي ، هو الطائرة . وكان مخترعوها حتى سنة ١٩٠٠ يعدون مخبولين لا ضرر منهم. ومع ذلك ففي سنة ١٩٠٣ أعلن الأخوان رايت ، وكانا من صانعي الدراجات ، الخاملي الذكر ، من أهالي دايتون بولاية أوهيو ، أنهما تمكنا من الطيران بسرعة ٣٥ ميلاً في الساعة، إذ مكثا في الجو زهاء دقيقة واحدة. فلم يصدقهما أحد . ولكن عصر الطيران كان قد بزغ فجره . فحدث قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ، أن استطاعت الطائرات المقاتلة قطع مائتي ميل في الساعة . وفي الحرب العالمية الثانية تفاوتت سرعة الطائرات في الساعة بين ٣٥٠ ميلاً و ٤٠٠ ميل . ثم أصبح في وسع طائرات أخرى مجاوزة هذه السرعة ، الى أكثر من ٦٠٠ ميل في الساعة . وتعدّ الآن سرعة ٣٠٠ ميل في الساعة متوسطاً لما تقطعه طائرة الركاب التجارية. غير أن بعض طائرات التجارب قد فاق في طيرانه سرعة الصوت أي ٧٣٠ ميلاً فوق سطح البحر .

ويتحدّث المهندسون في هذه الآونة في السرعات التي تبزّ سرعة الصوت أي ألف ميل في الساعة . ومعنى هذا أن الانسان سوف يصبح في مقدوره قبل نهاية هذا القرن، مغادرة شيكاغو مثلاً الى لندن صباحاً . ثم العودة منها في الليلة نفسها.

٥ — ﴿ تاريخ اختراع الطائرات اللامروحية ﴾ وقد كانت النداءات الخاصة . بزيادة السرعة ، تتردد دائماً بين القوات العسكرية في الدول كافة . بل كانت هذه الاستغاثة

المطردة ، مما تستحيل تلبيتها بوساطة المحرّك المعتاد ذي المكبس . ثم انقضت عدة أعوام في البحث ، حتى وفق السير فرانك هويتل القائد البريطاني الجوي ، لطريقة صالحة للفوز بتلك الأمنية ، وذلك في الحرب العالمية الثانية . ونعني بها التحريك الغازي بالمحركات النفاثة أي الاستغناء عن المراوح المألوفة. ومع ذلك لم يتيسر حتى بهذه الوسيلة الجديدة بلوغ سرعات تفوق الصوت . لذلك وجه علماء الطبيعة التابعون لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها ، اهتمامهم الى الصواريخ الكثيفة الأجنحة، قصيرتها ، ذات الزاوية الحادة الواقعة بين خط الميل والمحور الجانبي للطائرة . وقد تمّ صنع الطائرات الصاروخية وتطييرها بضع دقائق . ولتصميم هذا الطراز من الطائرات ، كان لا بدّ من اعداد قواعد جديدة . لأن سرعة الطيران متى زادت ووصلت الى سرعة الصوت ، تتعرض الطائرات العادية للدفع وتستهدف لتمزيق أوصالها من مقاومة الهواء لها . ولما كان المحرك الصاروخي يدفع نفسه دفعاً الى الأمام ، ولا يحتاج الى الهواء من الخارج ، لذلك لا يسوغ لأي امرىء كان أن يسخر ممن يزعمون أن في وسعهم الطيران الى الكواكب . وهم أولئك الذين يفكرون في التحليق بطائرتهم الى القمر أو الى المريخ أيضاً .

٦ — ✽ الآلات الميكانيكية بدلاً من الخيول ✽ وهذه السرعات الجديدة العظيمة تجعل الناس تقدر القوتين الميكانيكية والكهربية حق قدرها ، في الثقافة العصرية . والدليل على ذلك ، إنه كان في بلاد الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٠٠ نحو ٢٧ مليوناً من الخيول . وكان أكثرها يستخدم في الأعمال الزراعية . فغدونا اليوم قلما نرى جواداً واحداً حتى في الأقاليم القروية ، حيث تقوم المحاريث بهاتيك الأعمال جميعها . وتساعدها على أدائها عربات الجيب Jeep والسيارات الضخمة التي حلّت محل الجياد في المزارع . وهذا عدا المحركات الثابتة التي تدور بالبنزين فتنشر الخشب وتطحن العلف للمواشي وتقوم بمعظم الأعمال الزراعية اليومية الهينة .

وهذا مما جعل الفلاح الأمريكي يعنى أشد العناية بالطاقة الميكانيكية، فضلاً عن اهتمامه بالشؤون العلمية .

٧ - ✽ قوانين مندل في الوراثة ✽ وفي سنه ١٩٠٠ أعيد اكتشاف قواعد الوراثة

التي كان قد وضعها الأب جريجور مندل ونشرها في نشرة نباتيـة خاملة الذكر . وذلك بعد اغفالها في زوايا النسيان مدى ٤١ عاماً . ومن ثمة أخذ علم الوراثة في التقدم . فأضحى بوساطته يتيسر ايجاد النباتات والحيوانات الجديدة ، بحسب مشيئة الانسان في أغلب الاحيان . فاستخدم الفلاح هذا العلم الجديد فتمكن من جعل أبقاره تدرُّ لبناً أغزر من المألوف، وتنتج زبداً أكثر من المعتاد . وكذلك صارت عجوله تنتج لحماً بقريّاً أجود مما كان يحصل عليه من قبل. وصار القمح الذي يزرعه ، يقوى على مقاومة العواصف كما إن الذرة المهجّنة تغل محصولات ضخمة . وإن تكن المزارع الأمريكية قادرة على تغذية الشعوب الأمريكية بأسرها ، بل إن محصولاتها تفيض على حاجاتهم الغذائية ، مع مهاجرة سكان القرى ، الى الحواضر ، فهذا يرجع أولاً ، الى استخدام الفلاحين الأمريكيين ، للآلات الزراعية الميكانيكية المتقنة . وثانياً الى تطبيقهم قوانين مندل الخاصة بالوراثة .

٨ — ﴿ القنبلة الذرية ﴾ وكنا الى سنة ١٩٤٥ نقدر الطاقة الميكانيكية وفقاً للوقود الذي نحرقه في الفرن المولد لها . حتى حلّ العام الأخير من أعوام الحرب العالمية الثانية، فأعلن خبر خواه، إن فريقاً من علماء الطبيعة اخترع قنبلة ذرية كلفتهم بليونين من الدولارات وذلك بشطر ذرة اليورانيوم ، على النمط الذي اكتشفه العالمان الألمانيان «هان وستراسمان» في آخر سنة ١٩٣٨ . فأمكنهم اطلاق بعض الطاقة العظيمة التي توثق دقائق الذرة بعضها ببعض . فولدت نتائج مروعة في بلاد اليابان ، التي ألقيت عليهـا . وقد تبيَّن أنه يسهل تسخير هذه الطاقة في توليد طاقة ميكانيكية تستخدم على البرّ أو في السفن (١) التي تمخر عباب البحر . وذلك قبل أن ينتهي القرن الحالي .

وغني عن البيان أن الانسان منذ عصر التوحش ، من ملايين السنين، عند ما اكتشف طريقة صنع النار واستخدامها ، لم يظفر بظفر صناعي رائع يشبه اختراع القنبلة الذرية .

٩ — ﴿ نظرية النسبية ﴾ ولم يكن هذا الاختراع ابن يومه ، بل نتيجة مباحث تليدة ، أشار اليها قدماء العلماء . فما كاد يحلُّ القرن الحالي ، حتى شرع علماء الطبيعة يقولون للعالم إن في كوب من الماء طاقة كافية لتسيير باخرة من عابرات المحيطات. إذ نبغ في سويسرا

---

(١) الكاتب — راجع مقالنا على تسيير السيارات والطائرات بالطاقة الذرية المنشور بمقتطف مايو سنة ١٩٤٦

شاب من الباحثين في العلوم هو البرت اينشتين . فأعلن سنة ١٩٠٥ نظريته الخاصة بالنسبية وبهذه المعادلة الكيماوية البسيطة ، تيسر لكل طالب من طلبة المدارس العليا تقدير ما يوجد من الطاقة في بقعة من الطين مثلاً فيحصل على جواب مؤلف من أرقام مدهشة .

وكذلك أدرك العلماء قبل وصولهم الى هذه الحقيقة ، أن الذي كان يقع في المعمل الكيماوي كان يحدث مثله في الكواكب أيضاً . ولكنه في الكواكب أعظم مقياساً. وإن الذرات عينها موجودة في الكون بأسره . بيد أن الحرارة في الكواكب ترتفع ارتفاعاً عظيماً جداً يبلغ ملايين الدرجات كما ترتفع الضغوط الى ملايين الأطنان . وكانت الذرات ، وما زالت تتمزق بوساطة هاتيك القوات الهائلة ، ثم يعاد تأليفها . وبهذه الطريقة كانت المادة تتحول طاقة ، والطاقة الى مادة . ثم أدركوا أخيراً لماذا تضيء الكواكب . وذلك إنهم عرفوا هذه المعلومات جميعها من خطوط الطيف الضوئي للكواكب ، بانحلال النور الى ألوانه الأصلية ، بانعكاسه على موشور زجاجي وغيره . ولكن هذا البلاغ العلمي لم تستطع الناس ادراك كنهه في حينه كما يجب إلا عند ما علموا أن الذرة مؤلفة من دقائق أصغر منها .

١٠ – ﴿ التلسكوب الأعظم ﴾ التليسكوب – هو المقراب في فقه لغة مجمعنا المصري الموقر للغة العربية ، وكان انشاء التليسكوبين العظيمين – وهما – تليسكوب ويلسون البالغة قطر مرآته العاكسة للضوء ١٠٠ قيراط . وتلسكوب بالومار الذي يبلغ قطر مرآته العاكسة ٢٠٠ قيراط ٦ أمتار في النصف الأول من القرن الحالي . والغرض من اقامة ذينك المقرابين اللذين يعدان أكبر ما في العالم ، أولهما على قنة جبل ويلسون ، وثانيهما على قمة جبل بالومار ، تسهيل جمع مقدار من الضوء يفوق ما تجمعه منه المراصد الفلكية القديمة ، ليتاح تحليل ذلك الضوء الى بلاغات طيفية .

١١ – ﴿ تحطيم الذرة ﴾ أما تحطيم الذرة فيرجع تاريخه الى ١٩١٩ إذ اكتشف إرنست روذرفورد أن بعض العناصر المعدنية يمكن تحويله الى عناصر أخرى . ومنذ ذلك العهد تيسر فعلاً تحويل ذرات دقيقة جداً من الزئبق الى مثلها من الذهب . ومن ثمة ثبت أخيراً ثبوتاً جلياً أن علماء الكيمياء القديمة لم يكونوا معتوهين كما كنا نظن . ولم يقتصر الأمر على ذلك . بل إن العلماء استطاعوا انتاج عناصر معدنية جديدة لم تكن معروفة في الطبيعة قط . وهي النبتونيم والبلوتونيم وغيرهما (١)

---

(١) الكاتب — راجع مقالنا على « انقاذ الزراعة بالذرة » المنشور في مقتطف فبراير سنة ١٩٥٠ ثم مقالنا على الذرات المشعة — في مقتطف دسمبر ١٩٤٣

وبعد أن تم تحطيم ذرات أنواع العناصر بأسرها ، وذلك بمساعدة الدقائق الفائقة السرعة ، ثبت أن أغلب العناصر مؤلف من أخلاط ، هي التي نسميها توائم أو نظائر كيماوية . فالرصاص مثلاً يحوي ستة أصناف من هاتيك التوائم . وهذه يتسنّى تمييز بعضها من بعض ، بالوزن . ويوجد من هذه النظائر عدة مئات . وبعضها ذاتية الاشعاع . وبعضها الآخر مجرد من الاشعاع . وهذان الصنفان ، يمكن استخدامهما كأدلة يسترشد بها الأطباء الى كل ما يحدث في الجسم البشري من التقلبات ، عندما يهضم بيضة أو قطعة من شريحة لحم بقري مثلاً .

فلا بدّ إذن من تنقيح المذهب القديم بأجمعه . ونعني به الخاص بكيفية انتفاع الناس بالمواد البروتينية والشحمية التي يتغذون بها . لذلك شرع العلماء في تغيير علمي الفسيولوجيا والتغذية القديمين . كما استخدموا بعض التوائم الكيماوية التي سلف ذكرها ، علاجاً لداء السرطان .

١٢ ﴿ اكتشاف الكهيرب ﴾ وكانت هذه المخترعات كلها التي تمت في طبيعيات الذرة ثمرة منطقية من ثمار اكتشاف الكهيرب ، وذلك في أواخر سنوات القرن التاسع عشر . إذ ثبت أن ذرة الهيدروجين التي هي أخف الذرات عامة ، أثقل من ذلك الكهيرب ١٨٤٠ مرة . وبدهي أن الذرة ليست هي أصغر وحدة مادية لا يمكن تقسيمها من المواد التي أخذ الكيماويون على عاتقهم القيام بتقسيمها إذ فتتوها وجعلوا يدرسون فتاتها .

وفي سنة ١٩١٩ استنتج روذرفورد ، من دراسة ذلك الفتات ، ان الذرة تشبه المجموعة الشمسية . لأن لها نواة تضارع الشمس . وتدور حولها كهيربات سيارة . أجل إن هذا المذهب قد عدّل فيما بعد تعديلاً كبيراً . ولكن الحقيقة الأساسية وهي كون الكهيرب دقيقة كهربية ، كما إنه دقيقة مادية ، ما زالت قائمة . فومضة البرق مثلاً هي ومضة كهيربات . والتيار الكهربي الذي يسري في سلكه ، هو فيض من الكهيربات .

وفي القرن التاسع عشر الذي زخر باختراع مولدات الكهربا وبالتليفونات والتلغرافات لم يعرف كنه الكهربا . أما في هذا القرن العشرين فقد أصبحت أسرار الكهربا معروفة كل المعرفة . وهي توصف بمصطلحات ، هي الكهيربات أي الذرات الكهربية السالبة

١٣ — ﴿ بناء الذرة ﴾ وقد تفرع من هذا العلم الجديد الخاص بتركيب الذرة ، فن آخر هو الهندسة الكهربية المسمى Electronics إلكترونيكس أي دراسة خواص الكهيربات وسلوكها في الأحوال كافة ، ولا سيما الخاصة باستخدامها في الأعمال الفنية والصناعية .

هوصه جندي

مؤتمر دولى

لتسوية الخلاف بين الشيوعية والرأسمالية
لتلافي الحرب

يقولون الآن أن هـذه الحرب هي حرب مبادىء لا حرب فتح واستعمار . فاذا كان هذا القول صحيحاً ، وهو صحيح ، أفلا يمكن التنويه بين المبدئين المتناقضين ؟

روسيا تقول نحن نريد أن نجعل العالم كله شيوعيًّا بحيث يتمتع كل فرد بما تجنيه يداه ، ولا يتمتع أحد بتعب غيره . فمن يشتغل يأكل . ومن لا يشتغل يجوع . ومن لا يستطيع العمل فحقه في الحياة على الجماعة . هذه هي نواة المبدإ الاشتراكي . وروسيا تقول أيضاً : نحن نناهض الرأسمالية لأنها نقيض هذا المبدإ على خط مستقيم . فهناك فريق من الناس يتمتعون بجني فريق آخر بحسب نظام الرأسماليـة . والاستعمار هو فرع من الرأسمالية ، بل هو أضخم منها . ونحن نريد هدم الرأسمالية . وسحق الاستعمار . ولذلك يؤيدنا من الناس معظمهم أو أكثريتهم الساحقة ، وأينما اتجهنا وجدنا أنصاراً . ولذلك لا نحتاج الى دعاية ، لأنّ مبدأنا يدعو لنفسه . هو في قلب كل انسان .

هذا ما يقوله الشيوعيون .

وأما أعداء الشيوعية فيقولون ان عمران العالم منذ القديم الى اليوم قام على الرأسمالية، فاذا قتلت الرأسمالية قتلت العمران . ولـكن السواد الأعظم من الناس يؤيدون الاشتراكية. بيد أنهم يشجبون الشيوعيـة لأسباب ليست خافية . فأولاً يفهمون من الشيوعيـة إنها إباحية ، تبيح لأي انسان أن يعاشر أية انسانة . ولذلك لا يبقى وجود للأسرة، وهو أمر ينفر منه جميع الناس لأنهم تعوّدوا العشرة القانونية ، أي العشرة بحسب قانون الزواج والأسرة الخ ، فينفرون من هذه الإباحة . ثم ان كثيرين من الناس يفهمون أن الشيوعية تبيح للعامة أن يتقاسموا أملاك الملاك .

ثمّ ثانياً : ان الشيوعية الروسية ألغت الدين وأجازت الالحاد، بل جعلته شرطاً للشيوعية. فمن لا يجاهر بإلحاده يعتبر عدوًّا للشيوعية ، وفي مدّة الحرب العالمية الثانية اضطر ستالين وأعوانه أن يدعو الاكليروس الروسي الذي كان مطروداً من كنيسته ومضطهداً ، أن يعود الى كنيسته ويمارس طقوسه . وكان غرض ستالين وأتباعه من هذه الحركة أن يكسبوا عطف سائر الأمم التي لا تزال تتمسك بالدين . وبهذا العطف يقل خصومهم ولاسيما خصومهم من الروسيين ، لأن كثيرين من الروس بقوا متدينين . والانتصار في الحرب يحتاج الى هذا العطف . ولعلّ هذا كان من أهم أسباب انتصار روسيا

ثم ثالثاً : ان الحكم في روسيا بحسب ما يبلغ إلينا خبره ، لم يعد ديموقراطيًّا، بل هو دكتاتوري محض . والدعاية البالغة ضده صوّرته لنا همجيًّا وحشيًّا ولم يعد للحرية فيه من أثر . ولهذا ينفر أكثر الناس منه جدًّا ، حتى أن العامة والمتوسطي الحال الذين يقدسون الاشتراكية صاروا ينفرون من شيوعية روسيا

فترى مما ذكرناه أن الخلاف بالحقيقة خلاف على المبدإ أولاً ، وخلاف على كيفية اجراء المبدإ ثانياً .

سواد الناس يحبذون الاشتراكية حتى الماليين منهم لأنهم يرون أن هذا النظام عادل ولا يرتاح المجتمع من الخصام الاّ به . ولكن أية اشتراكية ؟ التكافل الاجتماعي (كالذي في انكلترا) هو خطوة بالغة فيه . ومتى عمّ في انكلترا وشمل جميع المرافق وصارت المرافق الكبرى جميعاً مؤممة (أي ملك الأمة) بلغ ذلك النظام حدّ الاشتراكية القويمة ، وصارت البلاد اشتراكية بمعنى الكلمة ،

فاذا كانت الحرب بين الشيوعية والرأسمالية لا بين قوم وقوم ، ولا بين أمة وأمة ، ولا بين بلد وبلد ، فلماذا لا يعقد مؤتمر عام من الروس والذين يلفون لفهم من الدول المنتمية للشيوعية الروسية (حتى من الأحزاب الشيوعية التي في الدول الأخرى) . ومن الدول التي تناهض الشيوعية كانكلترا وأميركا وغيرهما من دول أوروبا والشرق ، يتباحثون في ما هي الشيوعية التي يحاربها هؤلاء ، والشيوعية التي تدافع عنها روسيا وأنصارها . ثم يتفقون على المبدإ ليجعلوه واحداً ويجعلوا له نظاماً واحداً تتخذه كل أمة وكل دولة

لنفسها وتجريها في بلادها اجراءً قانونيًا . فيزول هذا الخلاف ، ولكن اذا استمرّ هذا الخلاف وبقيت الحرب كوسيلة للتسوية ينسحق معظم الجيش البشري وتتهدّم الدول والممالك وتتقوّض الحكومات ولا يبقى الاّ الشيطان حاكماً على سطح كل الأرض .

بقي أن نسأل هل يمكن التوفيق بين المبدئين ؟

ترى أن بين المبدئين خلافاً شديداً ، المبدإ الواحد يجيز للمتموّل أن يثمر ماله على حساب العامل ، حتى يصبح قطباً ايجابيًا صاحب الملايين والبلايين ، والعامل قطباً سلبيًا حتى يصبح على شفا الفناء . ذاك إيجابي وهذا سلبي ، ولهذا سمينا هذه المباينة الاستقطاب الاقتصادي كالاستقطاب الكهربائي .

لهذا نرى صعوبة في الجمع بين المبدئين . ولكنه ليس مستحيلاً فهو موجود في الطبيعة . فاذا انضم الكترون سلبي الى بروتون إيجابي اتحدا وزال الاستقطاب . ونشأ الضوء لا سلبيًا ولا إيجابيًا بل هو متعادل . هو نور وطاقة — وهكذا يكون انه اذا اتفق الجانبان الشيوعيون والرأسماليون نشأت الاشتراكية المتعادلة وكانت طاقة ونوراً لجميع الأمم والأفراد .

فاذا عقد هذا المؤتمر الذي نحن بصدده من رجال معتدلين مخلصين ويحبون السلام على الأرض أمكنهم أن يقرروا مبادىء الاشتراكية المعتدلة ونظامها النافع الذي يقبله جميع الأمم ، وبذلك يرتاح العالم من شر الحروب ويأمن فظائع الحرب القادمة التي ستكون أفظع من الحرب الماضية مئة مرة . وقد تكون بها نهاية العالم ولا يمكن أن يكون فيها انتصار إلاّ لإبليس الرجيم .

وهب أن هذا الخاطر خطر لغير كاتب هذه السطور ووافق الخصمان على عقد هذا المؤتمر يخشى أن ينبري العنصر الذي اعتاد أن يستغل كل حرب والذي له يد في كل حرب فيعرقل هذا المؤتمر ، الاّ إذا استطاع أن يتولى هو إدارة هذا النظام الاشتراكي بنفسه لينتفع وحده من محاسنه كما يفعل الآن في ادارة الشيوعية في روسيا . وقانا الله شر الحرب وشر الاشتراكية التي تديرها تلك الطغمة .

صوت من عالم الخلود

فضائل الحرب والسلم

بقلم العلامة الكبير الدكتور يعقوب صروف

[الفضائل التي يدعي أهل الحرب أن الحرب توجدها أو تمكنها في النفوس كالشجاعة الوحشية والجرأة والاقدام وتحمل المتاعب والمصاعب والصبر على المكاره وعدم المبالاة بالخسارة مهما كبرت وعظمت — كل هذه وغيرها ليست أعظم من الفضائل التي يوجدها السلم

فالشجاعة الأدبية لا تقل منزلة عن الشجاعة الوحشية . والاقدام على الأعمال الكبيرة أوقع في النفس من الاقدام على خوض ميادين القتال . لأن الانسان يكون مدفوعاً في الأول بعامل التعقل والتبصر وفي الثاني بسورة النزق والطيش .

ولا يقول أحد أن الجنون خير من العقل . ورواد الحضارة الذين يجتابون البلدان المظلمة لنشر لواء الحضارة . ويعانون المشاق والأهوال في سبيل ذلك خير من الجنود الذين ينفقون أعمارهم في خوض ساحات الحرب وميادين القتال . والعالم الذي يحاول حل سر من أسرار الطبيعة أو اكتشاف دواء لداء قتال قاضياً ليله ونهاره في البحث والتنقيب بالتجربة والاختبار صابراً على فشل أمانيه مرة وخيبة مساعيه أخرى لأرفع مقاماً وأعظم منزلة في عيون الناس من أي قائد كان . فذانك الاسكندر وأرسطو ونابوليون يسكنون القبور ووجه التفاضل بينهم لا يخفى على أحد] .

العلاّمة الخالد بعلمه وفضله

في التاسع من يوليو سنة ١٩٢٧ اخترمت المنون الفيلسوف الكبير بعد عمر طال على الجهاد في سبيل نشر العلم والمعرفة . وقصر على الفضيلة والاحسان . فقد ظل سخيّاً على العالم بعقله وروحه وقلبه جواداً مخلصاً في العمل على بث أنوار العلم وتحرير الفكر . فأفاض على العالم من فيض ما أفاض الله عليه به . فهذب النفوس . ورقى المدارك . وتفانى

في النهوض بالبشرية من كبوتها . فعزز شأنها . ورفع مرتبتها . بهمة عالية وعزيمة ماضية . وكان لسان حاله يقول : —

أليس من الخسران أن لياليا   تمر بلا نفع وتحسب من عمري

الدكتور يعقوب صروف

رحل « يعقوب صرُّوف » الى عالم السكينة والسلام بعد أن أنفق عمره حتى ساعاته

الأخيرة مكبّاً على التحبير والتأليف . في شتى العلوم والفنون لا يشغله عنها شاغل من مشاغل الحياة وملاهيها . حمل مشعال النهضة الفكرية في الشرق العربي وسواه من الأقطار سبعة وخمسين عاماً ونيفاً . قضاها كلها في سبيل العلم والتعليم . بالدقة والصبر والمثابرة والتضحية والاخلاص .

وقد ترك بعده فيما ترك من التراث العلمي — سبعين مجلداً من «المقتطف» . هي كنوز علمية خالدة يستفيد منها الناس مدى الأدهار . لأن جواهرها لا تتغير بتغير الزمان والمكان . فهي دائرة معارف حية قيمة يرجع اليها الباحثون ويهتدي بهديها المحققون

وكان مما كتبه في أخريات أيامه الفصل الموجز الذي صدّرنا به هذه الكلمة . اخترناه لمناسبة ما يكتب الباحثون والكتاب اليوم عن الحرب التي يلوح شبحها في سماء السلام . والفصل على ايجازه تضمن آراء سامية في الحرب والسلم . وهو مثال بسيط على طريقة بحثه ومبادئه التي يبني عليها آراءه . وعلى أسلوبه الانشائي الممتع المعجز البليغ .

أما « المقتطف » فقد انشأه في بيروت بالاتحاد مع زميله وشريكه في جهاده العلامة الكبير الدكتور فارس نمر باشا — أمدّ الله في حياته — وصدر العدد الأول في مايو سنة ١٨٧٦ في اثنتين وعشرين صفحة واحتوى على سبع مقالات في مواضيع شتى علمية وفلسفيه وتاريخية . وبعض الانباء العلمية . وكانا إذ ذاك استاذين في كلية بيروت وفي ريعان شبابهما . وقد اعترضت طريقهما عقبات كأداء . ولكنهما ذللاها بالصبر والحكمة والثبات .

ولظروف خاصة هبط العلامتان الكبيران القطر المصري في سنة ١٨٨٥ فلقيا من رعاية حكامه وأقطابه وزعمائه يومئذ ، وفي مقدمتهم المغفور له الخديوي توفيق باشا والمرحومان شريف باشا ورياض باشا ، ماحبب لهما الاقامة الدائمة في مصر ونقلا المقتطف اليها .

وفي سنة ١٨٨٨ أنشأا « المقطم » بعد أن انضم اليهما المرحوم شاهين بك مكاريوس . فظلوا ثالوثاً في اله واحد . هو الوفاق والاخلاص والمحبة مجتمعة متكتلة :

وكان الفيلسوف الراحل على خلق عظيم . لا يعرف الغل والحقد أو نحوهما من العيوب سبيلاً الى نفسه الصافية . وكان طيب القلب حلو اللسان . يسدي المعروف والجميل . ويبسط

يد المعونة والاسعاف لمن يستحقهما .

وقد عرفت « مصر » البلد الطيب الكريم — للفقيد فضله . وكان اجماع عظمائها وكبار اقطابها وعلمائها على تكريم « المقتطف » في عيده الخمسيني برعاية جلالة الملك الراحل أكبر دليل على اعترافها بتقدير الفيلسوف العلامة الكبير الذي غرس في أرضها الخصبة حدائق العلم والعرفان فأينعت أشهى الثمار.

حفلة تكريم « المقتطف »

اما الحفلة العلمية التاريخية المشار اليها فقد أقيمت في دار الأوبرا الملكية بعد ظهر ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٦ وكانت في عظمتها دليلاً ساطعاً على تقدير مصر للعلم والعلماء العاملين على رفع شأنه واعلاء لوائه . حضرها مئات من عظماء مصر وعلية رجالها وعلمائها وممثلي هيئاتها تقدمهم المرحوم محمد توفيق نسيم باشا مندوباً من قبل المغفور له الملك فؤاد .

وخطب المرحوم توفيق رفعت باشا (ناظر المعارف) . ومما قاله :

« نشأ المقتطف في بيروت . وما « بيروت » في أيام العهد القديم الا احدى مدن فينيقية مملكة الملاحة والتجارة والاستعمار . وفينيقية هي التي أسست مدينة قرطاجنة الشهيرة على العبر الشمالي من افريقية . قرطاجنة التي أقامت الرومان وأقعدتهم فباتوا يحسدونها ويحرِّقون عليها الأُرَّم ودهموها بقضهم وقضيضهم ثم استولوا عليها فكبت . وما هي الا ان نهضت بعض النهوض حتى حملوا عليها حملة شعواء ساحقة فدمروها تدميراً .

ان الناشئين في أرض الفينيقيين الذين توارثوا خلالهم ونسجوا على منوالهم هم اخواننا السوريون السباقون للغايات . الناشطون فما استجموا . والمستعمرون للعلم والعمل بأي أرض ألموا . نعم انهم أسسوا بيننا بمقتطفهم قرطاجنة « للعلوم زاهية » زاهرة لا نخاف منها خطراً ولا نوجس ذعراً . وانه وان اتيح لبيروت ان كانت مهد طفولة المقتطف ومبزغ قرن شمسه ، فان لمصر ان تفخر بأنها مهد ايناعه بايفاعه . ومرقاة اكتماله باكتهاله

* * *

وأنشد شاعر الأقطار العربية المرحوم خليل مطران بك قصيدة رنانة بليغة قال منها :

تلك المنارة في المكان العالي   ترمي الدجى بشعاعها الجوّال
أنشأتماها للعلوم مجلة   كسيت بدائعها فنون جمال
سهرت عيونكما على اتقانها   فمن السطور بها سواد ليالي
ومن المدام دم اريق وان بدا   متنوع الألون والاشكال

«يعقوب» في احياء مجد بلاده   وبقاء تالدها من الابدال
هو فيلسوف سيرة وسريرة   متطابق الاقوال والأفعال
اخلاق جدٍّ لا تتم بغيرها   في العالمين جلائل الأعمال

* * *

وخطب سعادة الدكتور محمد حسين هيكل بك (باشا) ومما قال :

« ظل المقتطف كمجلة يتقدم كلما تقدمت واياه السنون . فبدأت فيه حركة الانشاء والبحث بعد سنوات قليلة وازدادت الأقلام التي تحرره تنوعاً وكثر الكاتبون فيه . فكان الميدان الأول الذي التقى عنده الكتّاب لنشر المعلومات والآراء والأفكار الغربية . كذلك كان أحد الميادين لنهضة التفكير والأدب العربي . ثم نشأت فكرة تواها ماثلة على صفحات المقتطف أيضاً . هذه الفكرة هي كيفية التوفيق في نفس أهل الشرق العربية بين ثمرات الحضارة العربية القديمة وبين الحضارة الأوربية الحديثة . . . »

* * *

وأنشد شاعر النيل المرحوم حافظ ابراهيم قصيدة عصماء قال في مطلعها :

شيخان قد خبرا الوجود وأدركا   ما فيه من علل ومن أسباب
واستبطنا الأشياء حتى طالما   وجه الحقيقة من وراء حجاب
خمسون عاماً في الجهاد كلاهما   شاكي اليراعة طاهر الجلبابِ
لا تعجبوا ان خضبا قلبيهما   وبياض شيبهما بغير خضاب
فلكل حسنٍ حلية يزهى بها   وأرى اليراعة حلية الكتّاب »

الى أن قال : —

«يعقوب» انك قد كبرت ولم تزل   في العلم لا تزداد غير تصابي
لاحت برأسك هزّة ولعلها   من وقع فكركَ لا من الاعصاب»

تأبين الفيلسوف في المدفن

وحين أودعوا الفيلسوف تلك الحفرة الضيقة المظلمة . في ذلك القفر البلقع — الذي يمر به الشجاع فيفزع — ودّعه عدد من عارفي فضله ومقدري علمه بكلمات صادرة من قلوب حطمها الأسى .

ومما قاله الدكتور فريد رفاعي بك : « نواري الساعة الأخلاق مجتمعة . والوفاء ممثلاً . والعلم ناضجاً . والفضل باسقاً . نواري قبساً قدسياً من ملكوت الحكمة والرحمة . وسماء

النبوغ والعبقرية . نواري قائدنا الكمي . وشيخنا الحكيم . من قاد لمصر والشرق كتيبة العلم والتحرير والفلسفة » .

* * *

ومما قاله الأستاذ لطفي جمعه بك :

« اذا كان لكل إنسان كتاب يتقدّم به لدى البعث والنشور فهذا الحكيم الراحل يتقدّم بكتابين — يتقدّم وفي يمينه سبعون مجلداً من العلم والحكمة والتاريخ والأدب تمثل خمسين عاماً من الجهاد العقلي المستمر . وفي يساره كتاب آخر هو كتاب الخلق المستقيم والارادة القوية والثبات والنشاط والدأب على العمل في غير هوادة ولا جمود ... »

* * *

ومما قالته نابغة الجيل الخالدة المرحومة « الآنسة مي » (وهو سحر حلال) : —

« مات صروف يا أبناء الجيل القديم !! فتعالوا واشهدوا الجيل الجديد على التفوق فيكم . وأعلنوا بأجرإ بيان وأفصح لسان ان في مثل صرّوف أعلى مثل يحتذى في الكفاءة والجد والتسامح والاستقامة .

مات صرّوف يا سوريا ! فهل بين أحرارك الذين شردهم الظلم والضغط والاضطراب والشقاء من هو أطهر جناناً . وأعف لساناً . وأسمى امتيازاً . وأحصف فكراً . وأصدق نظراً وحكماً ؟!

مات فتاك يا لبنان ! فتعال بقممك وغاباتك وأرزك وهدير أنهارك وقف حيال هذا النعش متسائلاً بأصواتك المختلفة « أليس بين أفذاذ الأمم مكان لهذا الذي أنجبت ؟! »

مات صرّوف يا مصر ! مات هذا الذي حلّ منك في وطن هنيء كريم بعد وطن على المتنورين ضنين . فقولي « هل بين الذين رحبت بهم وحبوتهم بنعمتك الحسية والأدبية من هو أسخى لك من عقله وروحه منحاً ؟ وهل بين العاملين لليقظة والتقدم من كان أجود وأخلص في العلم والنور والتحرير الفكري عطاء ؟! »

آراء الفقيد في معاملاته

كان في معاملاته « قانون نفسه وضميره » .

وقد قال : « لديّ محكمة غير المحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة . وهي محكمة الضمير . محكمة الوجدان . محكمتي أنا !! هذه المحكمة تحكم بأن أعمل كيت وكيت !! » .

وكان يعيب الآراء التي تثور بعنف على بعض المعتقدات الدينية والمذاهب الاجتماعية :

وفي ذلك قال « اذا كنت ساكناً في منزل لا ترضاه فهل تهدمه وتظل في العراء أو تبني غيره أولاً !! »

وقال « أيهما أحرى اذا دخلت قصراً من القصور ، أن تنزه نفسك في محاسن بنائه ومشتملاته ، أو أن تقف بجانب مرحاضه متأففاً !! لماذا لا تنظر الاّ مساوىء الناس دون محاسنهم ؟ يجب ألاّ تذكر المساوىء إلاّ للعبرة بها والتنفير منها . أما ذكرها وحدها للحطة من أقدار أصحابها وتسويء سمعتهم ، والتشفي منهم فليس من الصواب في شيء !! »

ومن أقواله « إنني أعرف طريقين لعبور التيار . احداهما أن تقطعه من شط الى شط في خط مستقيم لا تنثني أمام عقبة ولا تحيد عن قوّة مانعة، فتصل . أو لا تصل، والأخرى أن تماشي التيار حتى تصيب منه منفذاً الى سبيلك فأنت بالغ الى غايتك من سبيل طويل ولكنه مأمون !! »

معجزة الحياة وعالم الأرواح

بحث الفقيد بواسع علمه — معجزة الحياة والموت وحاول أن يكشف سر الوجود والكون . وشغلته نظريات الحياة بعد الموت وعالم الأرواح .

وكانت فكرة الموت تساوره في شتى مراحل حياته . ولا شك انه استقبله باسم الثغر منشرح الصدر راضياً مطمئناً . فليس الموت لدى أمثاله العظماء سوى الانتقال الى عالم الخلود والسكينة والسلام حيث يحل لغز الكون العظيم !!

وقد أعلن رأيه في ذلك اللغز فقال :

« انه ليس من المعقول أن تكون نهاية الانسان بعد هذا التطوّر والرقي — الفناء المطلق !! لا . وان قصور وسائلنا عن ادراك ما بعد الموت لا ينفي وجود تطور آخر للإنسان كروح ذلك الوجود الذي يقتضيه النظر الفلسفي . وكثيراً ما كانت الفلسفة رائد العلم الى الحقائق !! »

وعندي ان هذا الرأي أشبه بمياه اقيانوس عظيم تجتمع كلها في قدح . أو أبحاث عويصة استفاضت بها مجموعات ضخمة — اجتمعت في كلمة !!

***

وبعد — فما أطيب حياة الفيلسوف «صرّوف» . لقد ساد بتعاليمه من على ظهر الأرض وهو في بطنها !! وترك كنوزاً علمية عالمية . سيظل بها حياً وان مات . طيب الذكر طائر الصيت في مشارق الأرض ومغاربها .. وبآثاره يطاول الدهر عمراً

ابراهيم عطايا

الحرية تجاه السلطة

ماهي الحرية التي كانوا يحاربون لأجلها ؟

بعد أن سمعنا مراراً من الجانبين المتحاربين أنهم يحاربون لأجل حرية الشعوب والأفراد في جميع العالم ، وانهم يُعدون للامم نظاماً يكفل سعادتها على أساس هذه الحرية، صرنا نود أن نعرف ماهي هذه الحرية التي يقتتلون لأجلها . أهي الحرية التي جاهد الجنس البشري ألوف الأجيال لأجل الحصول عليها ؟ أم هي حرية جديدة من مستنبطات الفلسفة العسكرية التي لم نعرفها بعد

أما الحرية التي عرفتها جميع الأمم الراقية الى الآن فهي التي كانت أقوى العوامل في الجنس البشري . فاذا استعرضتَ التاريخ منذ تحضَّر الانسان وصار يسمي نفسه «متمدناً» وجدتَ انه حيث كانت الأمة أو الأمم مقيَّدة في تصرُّفاتها أو قليلة الحرية فيها كان رقيُّها بطيئاً ومناسباً لما فيها من الحرية ، وحيث كانت الحرية الفردية والجماعية مطلقة ضمن حدود النظام والقانون العادل كان الرقيُّ سريعاً بالنسبة نفسها

لما بدأ المجتمع يتكوَّن والجماعة تتحضَّر كان الفرد مقيَّداً بتقاليد ناسه وعاداتهم وعقائدهم ، فلا يستطيع أن يميل عنها قيد شعرة، والاَّ عُوقب عقاباً شديداً كما نرى الآن في بقايا القبائل المنحطة حتى عند الأمم التي لا تزال تقدِّس التقاليد . وكان هذا التقيد في تلك العهود القديمة ضرورياً لسلامة الجماعة وحفظ كيانها، لأنَّ سنة « تنازع البقاء » الحيوانية كانت لا تزال قائمة بين القبائل والطبقات، حتى بين الأفراد . فلم يكن بدٌّ من عنف سلطان الزعيم أو زمرة الزعماء على الأفراد لأجل الدفاع عن الجماعة ضد اعدائها من ناحية ، وضد قوات الطبيعة من ناحية أخرى ، وحرصاً على وافر الرزق أو كفايته

فتقييد الحرية هذا كان العامل الأقوى في بطء الرقيّ البشري الاجتماعي والعقلي والأدبي والعرفاني . فاذا كان الفرد يُعاقَب عقاباً شديداً اذا شذَّ عن عقيدة قومه وتقاليدهم أو

خالفها لما فيها من غير المعقول أو لما فيها من مناقضة لما اكتشفهُ من أسرار الطبيعة ، فلا يرجى أن تتقدم الجماعة في المعرفة والتعقُّل وتهذيب النفس ، لأن النابغ الذي أُوحيَ اليهِ أن يكتشف سرًّا أو ناموساً في الطبيعة أو ترّهةً في عقائد قومهِ أو سخافة في عاداتهم ، لا يجرأ أن يتمادى في التفكير والاستنتاج والابداع والاختراع لئلاَّ يقع تحت طائلة العقاب واذا كان جزاء العالم المفكر كجزاء غاليليو على اكتشافه دوران الأرض وغيره فلا ينتظر أن يقوم عالم آخر يجرأ على اذاعة حقيقة علمية أُخرى كهذه . ولذلك كانت العلوم والفلسفات تمشي الهوينا في طريق التاريخ أو تتوقف وتجمد في مكانها كلما اضطُهِد عالم أو حكيم أو فيلسوف من عهد سقراط وقبل سقراط الى العصور الأخيرة

لذلك بقي الجنس البشري متأخراً بضعة آلاف من السنين بسبب تقيُّد الحرية . والأمم التي ارتقت كثيراً أو قليلاً في الماضي انما ارتقت بسبب رفع الضغط عن الحرية حتى اذا عاد الضغط عليها انحطت ودالت دُوَلها .

فدول مصر وبابل وأشور الخ عاشت طويلاً في درجة واحدة من الرقيّ بسبب قيود الحرية . ولما اشتدت هذه القيود سقطت تلك الدول . وقس عليها دول اليونان والرومان وما عاصرها وما خلفها . وما سادت الظلمة السياسية والاجتماعية والعرفانية في القرون الوسطى في أوربا الاّ بسبب اضطهاد الحرية .

ولما تمكنت الجماعات في القرون الأخيرة من أن تنفض عن عواتقها نير العبودية وتتمتع بالحرية شرعت ترتقي بسرعة عجيبة . فالعلم نشط نشاطاً عظيماً حتى انه ازداد نحو ٩٩ ضعفاً عما كان عليه من قبل القرن الخامس عشر . والاختراعات الأولية تدفقت في دور العمل حتى انها لم تترك ليدي الانسان عملاً . والعلاقات الأممية من كل قبيل اتسع نطاقها أي اتساع ودرجة المعيشة والرفاهة ارتفعت ارتفاعاً عظيماً . ولا ريب ان هذا الرقي السريع كان بفضل اطلاق الحرية للفكر والقول والعمل . وما استطاعت أوربا أن تسيطر على القارات الأربع كثيراً أو قليلاً الاَّ بفضل تمتعها بالحرية هذه

وأول أنواع الحرية التي بسطت ظلها على الجنس البشري هي الحرية الفردية التي خلفت العبودية بعد استحكامها بأفراد القبائل والأمم مئات الأجيال . فقد كان الرقيق نظاماً رسمياً

يتحكم بمقتضاه فرد بفرد، وتتحكم طبقة بطبقة، كما يتحكم الانسان بالحيوان . ولم تسلم من وصمة هذا النظام أمة من أمم التاريخ حتى الدول الراقية كروما واليونان وغيرهما، الى ان جعلت الدول الكبرى الأوروبية في القرن التاسع عشر تلغي الرقيق والنخاسة في بلادها وفي أملاكها البعيدة الى أن أبادتها تماماً . ولم يبق من بقايا هذا النظام الا القليل في بعض البلاد الأفريقية التي لم تقع تحت سيطرة أجنبية

وكان نظام العبودية من أفعل عوامل البطء في الارتقاء، لأنه كان يقتضي أمرين متعاكسين ومعاكسين لحركة التقدم العمراني : الأول، ان المستعبدين يعتمدون في أعمالهم على الأرقاء، وينصرفون الى لهوهم وبطرهم وترفهم، فلا يضطرون الى التجديد والتحسين والتفنن في كسب الرزق، وبالتالي لا يُعملون عقولهم في هذا التجديد . والثاني ان الأرقاء والعبيد كانوا في ضنك من شدّة وطأة العمل وقيود الحرية وسوء المعيشة واستحكام الضغط على أجسادهم وعقولهم . فلا ينتظر أن يبدو منهم تجديد في صناعة أو فن أو معرفة ولا سيما لأنهم لا يتوقعون منفعة لأنفسهم من جرّاء اهتمامهم بالتجديد والتفكير والاستنباط . ولهذا كانت عقبات الرقي قائمة من جانبي الطبقتين المستعبدة والعبدة . ولكن لما ألغي نظام العبودية وصار الفرد يملك عقله وجسده . وصار يحق له أن يستثمرهما لأجل منفعته الشخصية، شرع الارتقاء العمراني يعجل مرافقاً لانتعاش الحرية الفردية .

ولم يكن قيد الحرية مقصوراً على هذه الحرية الفردية، بل شمل أيضاً حرية العمل . فمنذ القديم لم تكن الأعمال موزّعة بحسب رغبة الأفراد وأهليتهم، بل كانت معينة لفئات الناس بحيث لا يجوز لفرد أن يحترف عملاً ليس من اختصاص فئته وطبقته . فكان على ابن الفلاح أن يكون فلاحاً، وابن الصانع صانعاً، وابن الجندي جندياً، وابن الكاهن كاهناً الخ . وبقي هذا التخصيص حتى عهد الاقطاع الذي كان الفلاحون فيه عبيداً أو أشباه عبيد .

ولا يخفى أن هذا النظام لم يكن أقل عقبة في سبيل الرقي العمراني من نظام العبودية الفردية الذي تقدّم الكلام فيه لنفس الأسباب التي أوردناها . فزوال هذا النظام العسوف أطلق قوى الجماعات في العمل لاستغلال الأرض الزراعي والمعدني الخ، ووسع

دوائر الصناعات والفنون ، ومدّ طرق التجارة في جميع انحاء العـالم . فتدفقت الثروات في القرنين الأخيرين ولا سيما في الثـاني منهما تدفقاً لم يكن له مثيل في القرون الغابرة. ولولا هذا التدفق لما أمكن هذا الاسراف الحربي الهائل الذي نراه الآن

ولم تكن العبودية الفردية وتقييد العمل وحدهما من أسباب تباطؤ الرقي العمراني بل كانت هناك عوامل أخرى فيه ليست أقل شأناً منهما بل ربما كانت أشد وطأة على الحرية وأصعب عقبةً في سبيل الرقي وهي قيود العوامل النفسية : قيود الفكر والقول والرأي والاعتقاد والنشر والنقـاش في المجتمعات الخ . وهو معلوم انه اذا لم تكن حرية القول والنشر مصونة بحمى القانون فلا يرجى تقدُّم ولا رقيّ . وقد كانت هذه الحرية مفقودة أو كانت مخنوقة بين كفي السلطات الدينية والتقاليد المستحكمة التي كانت تجريها الحكومات. فانقضت مئات الأجيال في عراك عنيف مستمر بين تلك العقائد المتصلبة والعقول النيّرة الحرّة ، الى أن انتصرت هـذه الحرية النفسية في القرن التاسع عشر بعد نجاح الثورتين الأميركية والفرنسية . وبسبب انطلاق العقول الثاقبة من عقالها نشط العلم نشاطه الحديث العجيب الذي مكّن الانسان من اعتقال قوى الطبيعة والسيطرة عليها واستخدامها في هناءته وراحته .

ولا نغفل حرية الاتصال التي سهلت انتشار التمدن والترقي في العصر الأخير . فقد كانت الأمم تقيم حدود الخفارة فيما بينها علاوة على الحدود الجغرافية والطبيعية المختلفة بغية الحرص على سلامتها، ودفع الغريب عنها مخافة أن يكون خطراً عليها، واحتفاظاً بما فيها من الخير لنفسها . وقد بقي هذا التحوط في اليابان والصين حتى القرن الأخير . ولكن وسائل الاتصال والإنتقال التي تعدّدت وقرّبت الابعاد بفضل الاختراعات العلمية الحديثة هدمت تلك الحدود بين الأمم وتدفقت فيما بينها معالمُ المدنية ، ولمعت أنوار المعارف في كل صقع ، وطاردت ظلمات الجهل . ولولا تهدُّم حواجز الاتصال هذه لبقيت اليابان والصين وغيرهما من الأمم القديمة المدنية غارقة في بحار جهالاتها وخابطة خبط عشواء في ظلمات توهّماتها . فاليابان التي تحارب الآن ديموقراطية هـذا العصر مدينة لهذه الديموقراطية بنجاحها وفلاحها وسلاحها .

وعلى الرغم من تهدُّم الحواجز بين الأمم وترعرع الحرية في هذا العصر الذي يُعَدُّ ذهبيًّا، لولا ما شابهُ من سواد الحروب، عادت معظم الدول تقيم حواجز حصينة فيما بينها. فالدول المستعمرة منعت مهاجرة الاسيويين الى المستعمرات الشرقية الباسيفيكية لكي تحول دون تدفُّق الأمم الصفراء إليها واستغراق المستعمرين البيض. وبعد الحرب الكبرى الأولى أقامت دول أوروبا حواجز فيما بينها فمنعت المهاجرة منها وإليها، حتى أن الولايات المتحدة الأميركية التي كانت فاتحة باب المهاجرة إليها على مصراعيه عينت لكل أمة بعد الحرب الكبرى عدد المهاجرين السنوي إليها. ولعلَّ للدول فيما فعلت من هذا القبيل في العهد الأخير عذراً أو بعض العذر. وإنما يمكن تلافيه إذا أمكن الاتفاق على اتحاد أوروبي عام، ليس هنا محل البحث فيه.

تتوج هذه الحريات التي أشرنا اليها حرية السلطات الحكومية وانحلال قيود الاستبداد عن يديها. فلقد تطاول الزمن قرناً بعد قرن. وسلطة الحكومة بيد الفرد يتصرف بها كيف شاء بمطلق ارادته من غير رقيب أو مشير أو وازع. وهيهات أن يكون هذا الفرد طيب القلب حكيماً لكي يحسن قيادة شعبه الى الخير. ولطالما شب النزاع بين ذوي السلطة المطلقة والشعوب المحكومة لانتزاع السلطة من يد المستبد، ذلك لأن الحكم المستقيم النافع لا يمكن أن يدار بالقوة المستقلة المطلقة، بل بقوة التعقل. ولا تستقيم ادارة الحكم باملاء ارادة الفرد، بل بقرارات شورى الشعب. ولا تصيب أحكام الحاكم المطلق بمجرد ما يلوح في خاطره، بل تصيب الاحكام مصلحة الأمة بمناقشات رجال الأمة لأنهم أدرى بمصالحها.

والمظالم التي تعاقبت على الأمم قدحت زناد فطنتها فأدركت أن ادارة شؤون الشعب هي من حقوق الشعب. ولذلك كانت الأمم منذ أجيال تنازع حكامها هذا الحق. فكانت تنجح قليلاً وتفشل كثيراً. وفي القرن الاخير تمَّ لها النجاح. ولم يبق من آثار الاستبداد القديم الاَّ قليل، وصار ممكناً أن يقال أن الحكومات أصبحت ديموقراطية حرة.

على أن بعضهم يردون هذا القول بأن الحرية والسلطة ضدان لا يجتمعان. فلا يمكن أن توجد مع السلطة حرية، والاَّ انثلمت السلطة أو ضعفت أو انحلت نهائيًّا وعقبتها

الفوضى . ودليلهم على ذلك أن الديموقراطية كادت تفشل . ولولا نهوض الدكتاتورية لاستلام زمام الحكم لسقطت الديموقراطية وورثتها الفوضوية .

وردنا على هؤلاء أن السلطة ليست خصماً للحرية البتة بل هي حامية لها، اللهمَّ إذا كانت السلطة نفسها حرة مستمدة من قوة الشعب ومسندة الى رضى الأمة، وعاملة بمشورة نواب الأمة، وحائلة دون استبداد الحاكم الأعلى . فالحكومة الحرة على هذا النحو تؤيد جميع أشكال الحرية التي بسطناها آنفاً .

والدكتاتورية لم تقم بسبب فشل الديموقراطية التي نحن بصددها . وإنما قامت بسبب أن الحرية لم تتأصل بعد في نفوس الجماهير تمام التأصل، بل لم تزل مزعزعة بعض التزعزع، لأن فكرة العبودية القديمة ما زالت تجول في خواطر الجماهير كأنها سنة طبيعية، حتى إذا حدثت أزمة سياسية أو اقتصادية ولم يتسنَّ للحكومة تداركها في الحال، ارتبك الجمهور وذعر وخاف سوء المغبة، لأنه لا يدري كيف يمكن تدارك الأزمة، ولا يمنح الحكومة صبراً لتداركها، أو انه لا يعود يثق بها، ويلتمس منفذاً في ابان محنته، ويتمنى زعيماً أو منقذاً ينقذه من ورطته، يتمنى سيداً يقوده حتى ولو استعبده . فينبري الشخص الداهية لاغتنام هذه الفرصة ويتوسل بجميع أساليب الدعاية لاقناع الشعب بأنه هو ابن بجدتها . فينقاد له الشعب انقياد الأعمى لمن يأخذ بيده . ولا يلبث أن يصبح الحاكم بأمره . وتحل سلطته المطلقة محل الحكومة الديموقراطية .

فالدكتاتورية الروسية نهضت على أثر خيبة الحكم القيصري في ادارة الحرب (الحرب العظمى الأولى) . والدكتاتورية التركية قامت على أثر تداعي تركيا وسقوطها في نهاية الحرب . فأوقفتها الدكتاتورية على قدميها . والدكتاتورية الايطالية قامت على انقاض الثورة الاشتراكية الرعناء التي فشلت عاجلاً . والدكتاتورية الألمانية نشأت بسبب ارتباك حكومة الجمهورية عند عجزها عن الاستمرار في وفاء الغرامة والتعويضات بحسب شروط الصلح .

فهذه الدكتاتوريات كتمت أنفاس الحريات التي نحن بصددها وعطلت الديموقراطية بقدر ما خافت من تذمر شعوبها منها . والدكتاتورية التي كانت أكثر اكتساباً لرضى شعبها، كانت أكثر اطلاقاً لحريته كالدكتاتورية التركية . والدكتاتورية التي كانت

أكثر من غضب شعبها كانت أكثر اضطهاداً لحريته كالدكتاتورية الألمانية .

وقد اتضح جيداً أن دكتاتورية هتلر وستالين هما أعسف دكتاتورية في التاريخ لم تضارعها في العسف والاستبداد دكتاتورية الملوك والحكام والأمبراطرة والسلاطين الذين اشتهر ظلمهم واستبدادهم . فهتلر (وموسوليني مثله) وستالين مثلهما انتهك حرمة كل نوع من أنواع الحرية . فحرية الفرد انقلبت الى عبودية مطلقة حتى أصبح الشخص الواحد لا يدري كيف يتحرك وكيف يتكلم وكيف يعمل لكي يسلم من الاعتقال . وقد أصبحت المحاكم الجنائية لغواً لأن المغضوب عليه يسجن أو يقتل بلا محاكمة . وأما حرية العمل فقد قضي عليها تمام القضاء، إذ أصبح كل فرد ملزماً أن يعمل العمل الذي ترسمه له النازية أو السوفياتية سواء أعجبه أو لم يعجبه، واستطاعه أو لم يستطعه بالأجر الذي يفرض له، كفاه أو لم يكفه. وأما حرية القول فانقلبت الى كمامة في الأفواه في كل ظرف من ظروف الحياة حتى في المدارس والجامعات فلا يستطيع الأستاذ أن يلقي على طلبته الا ما كان يمليه عليه هتلر أو زعانفه . ومن أغرب أمثلة ذلك أنه طُلِب الى أستاذ السلالات البشرية (اثنولوجي) في جامعة برلين أن يلقي محاضرة موضوعها ان اليابانيين من سلالة آرية أو نوردية (Nordics) فهزىء الأستاذ بهذا الاقتراح السخيف ولم يعمل به . فأعيد عليه ثانية ثم ثالثة . ولو لم يوعز إليه صديق له أن يفر من المانيا لخسر حياته . ففرّ الى سويسرا ومنها الى انكلترا .

وإنما تكتم الدكتاتورة هذه الحريات لا لأن مصلحة البلاد تقتضي هذا الكتم ، بل لأن الدكتاتور نفسه قلق كل حين على منصبه ، وخائف من ثورة الشعب عليه ، لأنه لم يعمل لمصلحة الشعب أو لم يستطع أن يعمل لها ، بل حصر همه في العمل لمصلحته ولحفظ حياته وسيادته . ولو كان يعمل لمصلحة الأمة فعلاً لما حنقت الأمة عليه . ولا يعقل انها تحنق عليه بل لكانت تتعبّده . فإذاً لماذا يضطر أن يكتم حريتها ، ويكم أفواهها ؟ ان اضطهاده لحرية الشعب برهان دامغ على انه غير حائز لرضى الشعب ، لأنه لم يعمل لمصلحة الشعب ولا بمشورته .

فاذا كانت هذه الدكتاتورية المضطهدة الحرية ستخلف الديموقراطية الحرة فهل يمكن ان يستمر التقدم العمراني في طريقه ؟ لقد اتضح من بحثنا السابق في هذا المقال ان العمران لا يمكن أن يتقدم ما لم تكن حرية الفرد والجماعة مطلقة تمام الاطلاق . فاذا كانت الحرية معدومة والأفراد والجماعات مقيدة على نحو القيود التي وضعتها الدكتاتوريات ، فالمدنية الحالية تنحط وتسفل الى أن تغرق في لجة الاستبداد وتختنق وتهلك أخيراً

فهرس الجزء الثالث

من المجلد السابع عشر بعد المئة

١٣٣ بين الغريزة والعقل
١٤١ هلْ نقتل الذئب الذي في الانسان
١٤٧ الأم وحدها مسؤولة عن تربية الأولاد : روز (أنطون) حداد
١٥٠ العزلة في رأس الجبل : نقاش بين صحفي وناسك
١٥٧ حرية الطبيعة : بين الحصان والأوتومبيل
١٦٣ مدهشات الجراحة : الدكتور عبده رزق
١٦٥ ذكرى خليل مطران (قصيدة) : سليم عبد الأحد
١٦٨ الفكاك (قصيدة) : الدكتور احمد زكي أبو شادي
١٦٩ نظرات في النفس والحياة : نظرات ثاكري : ع . ش
١٧٣ تقدم الطب لعهد جلالة الملك فاروق العظيم : الدكتور جوزيف كحيل
١٧٩ معجزات العلوم والفنون في النصف الماضي من القرن الحالي : عوض جندي
١٨٥ مؤتمر دولي لتسوية الخلاف بين الشيوعية والرأسمالية لتلافي الحرب
١٨٨ فضائل الحرب والسلم بقلم الدكتور يعقوب صروف : ابراهيم عطايا
١٩٥ الحرية تجاه السلطة

الديمقراطية : مسيرها ومصيرها « ملحق » : لرئيس التحرير